أبناء السندباد:
رؤية غربية لقصة الملاحة العربية في المحيط الهندي

نجمة إدريس

مدرس بقسم اللغة العربية وآدابها ، كلية الآداب ، جامعة الكويت .

المجلة العربية للعلوم الإنسانية 41 العدد 21/83

الملخص

يجتهد البحث في تقييم كتاب «أبناء السندباد» لألن فيليرز الأسترالي ، وهو كتاب في أدب الرحلة ، وتشكل مادته استقصاءً متأنياً لمهنة السفر للتجارة والغوص على اللؤلؤ لدى البحارة الكويتيين أواخر عام 1939م .

وبالرغم من أن منهج الكتاب قائم على التسجيل الوثائقي وتحري الحقائق بالمشاهدة والملاحظة المباشرة فإن المتابع لفصوله لا يستطيع إغفال رؤية المؤلف الذاتية النابعة من ثقافته الأوروبية وتكوينه وانتمائه العرقي ، وهي رؤية بدت مختلفة عن رؤية العربي لذاته ولقيمه وموروثاته .

وقد اجتهد البحث في الوقوف على ما تصنعه هاتان الرؤيتان المختلفتان من مفارقات جديرة بالملاحظة والتسجيل ، منها :

- الملاحة العربية في مواجهة النفوذ الأوروبي ، وما صنعه هذا النفوذ - كما رسم الكاتب - من قوانين وإجراءات (معرقلة) لأنشطة التجار العرب وتحركاتهم ، وهو ما أوجد حالة من الريبة والنفور وصعوبة التلاؤم .
- انشغال الكاتب بقياس شخصيات مركب «فتح الخير» وتقييمهم ، وتقصي طقوس العمل وأعراف المهنة وقيم المجتمع الثقافية . وقد كان يصدر خلال هذا الاستقصاء عن منزعين : الأول ، التقدير الجم لشخوص أولئك البحارة العرب وسماتهم الإنسانية وفضائلهم النفسية والثناء على مهارتهم في العمل وجَلَدهم عليه . والثاني ، نعيه الخفي على بعض ما لا يقره أو ما لا يستطيع فهمه أو تقبله من طبائع وسمات أولئك ، كالميل إلى التواكل ، والإيمان بالقدرية المطلقة ، وموقفهم المتساهل من الزمن ، والتخلف المعرفي ، ورثاثة الحال ، إلخ .
- العنوان «أبناء السندباد» ومدى تمثيله لرؤية الكاتب الذاتية (المتهكمة) ، وتناقضه مع فحوى الكتاب وأهدافه .
- القيمة الفنية للكتاب بوصفه جنساً أدبياً .

يمكن أن يعد مؤلّف «أبناء السندباد» للرحالة الأسترالي ألن فيليرز[1] بحق كتاباً في أدب الرحلات . ومصطلح أدب الرحلة مصطلح قديم نجد إشارة له في كتابات الرحالة المسلمين وغيرهم ، تلك التي «يصفون فيها البلدان والأقوام ، والتي يذكرون فيها أيضاً أحداث تجوالهم ودوافع رحلاتهم ، وما قد يصاحب ذلك من بلورة لانطباعات شخصية أو إصدار أحكام تقويمية لما شاهدوه أو سمعوه . ونظراً لارتقاء الوصف في كثير من أعمال الرحالة وبلوغه حداً كبيراً من الدقة ، علاوة على عملية الأسلوب القصصي السلس والمشرق أدخلت أدبيات الرحلات ضمن فنون الأدب العربي ، وأصبحت قراءة أدب الرحلات متعة ذهنية كبرى»[2] .

والمتابع لجذور الرحلة - بوصفها نشاطا إنسانياً - وجد له مساحة وأهمية في الأدبيات العربية وتراثها يمكن أن يعود **أولاً** إلى ما ذكر في القرآن الكريم عن «رحلة الشتاء والصيف» إلى اليمن والشام ، **وثانياً** إلى الفتوحات الإسلامية التي بدأت منذ القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ، وما أحدثته من انطلاقة واسعة في البلدان والأمصار ، واكتشاف للأقوام والثقافات . وإذا أتينا إلى المصنفات المعروفة في مجال أدب الرحلة فسوف نقف بلا شك عند رحلات ابن بطوطة (703-779 هـ/ 1304-1377م) ، وعند إشادة ابن خلدون في مقدمته بالرحلة وفوائدها ، وعند ياقوت الحموي (ت 626هـ/ 1229م) ومؤلّفه معجم البلدان ، وغيرهم من الجغرافيين والمؤرخين الذين شكلت الكتابة عن الرحلة وأنماط العيش وعادات الشعوب جزءاً كبُر أو صغُر من مؤلفاتهم[3] . ويعود أدب الرحلة في ثوب متجدد منذ القرن التاسع عشر الميلادي طارحاً لوناً عصرياً من حوار الحضارات والانفتاح على ثقافات الآخر ، ممثلاً في مؤلفات كل من رفاعة الطهطاوي وأحمد فارس الشدياق وأمين الريحاني .

وبقدر ما كان لأدب الرحلة حضوره وتاريخه في الأدبيات العربية ، كان له كذلك تاريخه وملامحه في الأدب الغربي . ويكاد مؤرخو هذا الجنس الأدبي من الغربيين يجمعون على أنه نشأ بوصفه فناً روائياً خيالياً أو أقرب إلى الخيال ، ويمثلون لذلك بأبرز نماذجه ، وهو مؤلّف رحلات سير جون ماندفيل (1370م)

Sir John Mandeville Travels الذي اعتمد على سلسلة من حكايات المغامرة والخيال استقاها المؤلّف من أفواه الرحالة والمغامرين ، ثم نسبها لنفسه ولتجربته الشخصية . وقد لاقى هذا الكتاب سواء بأصله باللغة الفرنسية أو بعد ترجمته إلى الإنجليزية رواجاً كبيراً ولقرون تلت[4] .

ولكن مع دخول الغرب في عصر النهضة وعصر الكشوف الجغرافية التي شهدت أوج ازدهارها خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ومع بروز ظاهرة الرحالة المكتشفين مثل ماركو بولو وكولومبس وفاسكو دا جاما وماجلان أصبح أدب الرحلة الغربي أكثر واقعية وتمثيلاً للحقائق المعيشة . وبناء على ذلك تهيأ لجملة من المؤلفات ما بين القرنين السابع عشر والثامن عشر أن تعبّر عن الواقع الجغرافي والمعالم الحقيقية للبلدان من خلال ما تم من رحلات كان لها رواتها وكتّابها الذين يستقون رواياتهم من صميم التجربة والممارسة . من أمثلة هؤلاء الكتاب وليم دانبير William Dampier الذي ألّف ثلاثة كتب New Voyage Round the World (1697) «**رحلة بحرية جديدة حول العالم**» (1697) Voyages and Discription (1699) «**رحلة بحرية ومشاهد**» (1699) ، أما الثالث فهو Voy-age to New Holland (1703) «**رحلة بحرية إلى هولندا الجديدة**» (1703) .

ويأتي جيمس كوك James Cook نموذجاً ثانيّاً للكتاب الذين تركوا تأثيراً بارزاً لا في نمط الكتابة ومادتها المستوحاة من التجربة الصميمة فقط ، وإنما أيضاً في الأسلوب الفني المميز لأدب الرحلة . ونخص بالذكر في هذا السياق كتبه الآتيـــة : A Voyage Round Cape Horn and the Cape of Good Hope (1773) «**الرحلة حول رأس هورن ورأس الرجاء الصالح**» (1773) ، A Voyage Toward the South Pole and Round the World (1777) «**الرحلة نحـــو القطب الجنوبي وحول العالم**» (1777) ، و A Voyage to the Pacific Ocean (1784) «**الرحلة إلى المحيط الهادي**» (1784) .

ويبلغ أدب الرحلة الغربي مرحلة نضجه الفني في القرن التاسع عشر على يد كل من ريتشارد بيرتن Richard Burton وتشارلز دوتي Charles Doughty

بفضل ما تميزت به كتاباتهما من أسلوبية ذاتية ، وإيغال في المشاعر ، وامتلاء بروح رومانسية واضحة . من ضمن مؤلفاتهما الشهيرة Pilgrimage to Al-Medinah and Mecca (1855) «**الحج إلى المدينة ومكة**» (1885) لبيرتن ، و Arabia Deserta (1888) «**صحراء العرب**» (1888) لدوتي[5] .

ومع دخول القرن العشرين الذي شهد حربين عالميتين يكتسب أدب الرحلات في الغرب بعداً جديداً . وقد لخص الناقد بول فاسل Paul Fussell في مقاله : British Literary Traveling Between the Wars (1980) صورة أدب الرحلة حينئذ بهذه العبارة : «تجتمع في أدب الرحلات الحديث جملة من ملامح الرواية الهزلية ، والمقالة الأخلاقية ، وشيء من الرومانسية ، وذكريات حروب . والنتيجة تلك الروايات الزاخرة المموّهة»[6] .

ولما كانت مادة أدب الرحلات مستمدة من معايشة الشعوب والأقوام ووصف أساليب حياتهم وأنشطتهم ومعتقداتهم فقد بدت قريبة الصلة ، كما يرى حسين فهيم ، في كتابه «**أدب الرحلات**» بعلم الإثنوجرافيا . والإثنوجرافيا «كلمة معربة تعني الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد والعادات والقيم والأدوات الفنية والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة أو مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة»[7] .

ومن هنا نرى أن ثمة علاقة وثيقة بين مادة أدب الرحلة والإثنوجرافيا . بيد أن الفرق بينهما يتضح في حقيقة كون الإثنوجرافي لا يهتم بالرحلة لذاتها وما ينجم عنها من أحداث ومواقف قدر اهتمامه بوصف المكان الذي قصده ، والناس الذين عايشهم لفترة طالت أو قصرت . ذلك على عكس الرحالة الذي تشكل الرحلة عنده الموضوع والهدف ، ويأتي الوصف للمكان والناس في إطار حكاية الرحلة[8] . وبعبارة أخرى : «إن نتاج العمل الإثنوجرافي هو الدراسة التي تخضع لقواعد وأصول معينة ، أما أدب الرحلات فهو رواية التفاعل بين الذات والآخر ، والذي يُترك فيه للرحالة حرية التعبير الكاملة ، وأن يطرق فيه من الموضوعات ما يراه هامّاً وشيقاً»[9] .

ولعل إدراج كتابات الرحالة ضمن جنس الأدب لا يعود إلى اشتماله على المعلومات الإثنوجرافية بقدر ما يعود إلى ما يتوافر في هذه الكتابات من عناصر وتقنيات أدبية لافتة . وبناء على هذا التصور لأدب الرحلة يمكننا أن ندرج مؤلّف «أبناء السندباد» لألن فيليرز ضمن هذا الجنس ، وأن نعده مثلاً نموذجيّاً ضمن سلسلة رحلات الأوروبيين وأدبياتها وملامح الكتابة الفنية فيها . فإلى جانب الشغف بالمعرفة والاكتشاف جاء الكتاب ممثلاً لصميم التجربة المعيشة وعينة واقعية للممارسة والاحتكاك المباشرين ، بل الحرص على التشبّه والتقمص لأحوال الناس ونمط معيشتهم ، سواء في الملبس والمأكل والسلوك ، أو في محاولات تعلم اللغة واللهجات ، أو في تمثل العادات والتقاليد المحلية . إن ملامح أدب الرحلة الغربي يتبدى أيضاً في «أبناء السندباد» من خلال أسلوبه الفني الذي تنعكس فيه ذاتية مؤلفه ومشاعره ورؤيته وتأملاته ، وأخيراً تقييمه الشخصي لتجربة من هذا النوع يُعد هو بطلها الأكبر والأهم .

إن الناظر في سيرة حياة ألن فيليرز يمكن بسهولة أن يرى مدى تلبسه لدور الرحالة الذي نذر نفسه لهذا النمط من العيش والكتابة . فقد أمضى ردحاً كبيراً من عمره رباناً لمراكب يقودها عبر البحار ويدرسها ويكتب عنها . وقد بدأ نشاطه هذا منذ كان في الخامسة عشرة من عمره حين غادر موطنه أستراليا ، ثم حين دار حول رأس هورن في أقصى جنوب أمريكا الجنوبية عام 1935م على متن مركبه الشراعي «جوزيف كونراد» ، ثم حين قاد «ماي فلور» عام 1957م لمزيد من الاكتشافات . وقد تزامن نشاطه الملاحي مع جهد في التأليف ملحوظ زاد على عشرة مؤلفات في هذا المجال . أما علاقته بالسواحل الشرقية والعربية فمعروفة ، ليس من خلال مؤلّفه «أبناء السندباد» فقط ، وإنما من خلال ما حققه من قرب من البحارة العرب ، وكسب لثقتهم وتقديرهم بحيث أطلقوا عليه لقب «الشيخ ماجد» .

انطلاقاً من هذا التقديم يمكن إدراج كتاب «أبناء السندباد» لألن فيليرز ضمن جنس «أدب الرحلات» بكثير من الاطمئنان ، وذلك لتوافر جملة من

المسوغات الفنية نراها جلية ولافتة في هذا المؤلّف تحديداً . من هذه المسوغات ذلك الحسّ الإنساني العميق بوجوه الحياة وثرائها وتناقضاتها ، والتقدير الجمّ لكفاح إنسانها وكدحه وقبوله للتحديات التي يهزمها أو تهزمه . ومن المسوغات الاهتمام بعنصر الزمن وتوظيفه في بناء نسق متنام ومطرد من الأحداث الحكائية المتسلسلة . ومنها رسم الشخصيات وعوالمها النفسية وإعطاؤها سمات البطولة الدرامية وتجلياتها ، وتصوير الأماكن ومشاهدها الثرية الضاجة بنسغ الحياة ، فضلا عن توافر عناصر الحبكة القصصية ، وبؤر التأزم والانفراج ، والصراع الدرامي المؤثر الذي تضجّ به كل فصول الكتاب . ثم تتأتي الصياغة الأسلوبية ذات الصبغة الأدبية اللافتة بما فيها من عاطفة وتصوير وخيال لتؤطر كل تلك الميزات الفنية وتمهرها بطابع الجنس الأدبي .

الرحلة وأهدافها

لقد اختار ألن فيليرز[10] أن يكون مجال رحلته التي يصفها في كتابه عبر خط ملاحي يبدأ بموانئ الخليج والجزيرة العربية ، قاطعاً خليج عدن نحو شواطئ إفريقيا الشرقية وموانئها مثل حيفون وموقاديشو وممباسا ، انتهاء بزنجبار ودلتا نهر الروفيجي في أدغال تنجانيقا . ثم يكرّ راجعاً عبر الخط نفسه مارّاً ببعض الموانئ الإيرانية فالبحرين ، وأخيراً إلى الكويت[11] حيث يستقرّ لمدة أربعة أشهر ليوثق حياة الغوص على اللؤلؤ ومظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية آنذاك (ما بين 1938م - 1939م) .

إن أهم ما في هذه الرحلة ليس خطها الملاحي أو مواقعها الجغرافية التي يقع نصفها خارج الوطن العربي ، وإنما أهمية هذه الرحلة تكمن في أن الرحالة ألن فيليرز اختار عن قصد أن يبحر على متن سفينة عربية شراعية هي بوم «فتح الخير»[12] الكويتي لشغفه البالغ بالسفن الشراعية التقليدية ، واختار أن يكون مع بحارة وملاحين كويتيين وربان كويتي هو النوخذة[13] علي بن ناصر النجدي ، ليتعرف عن كثب إلى قصة الملاحة التجارية العربية في المحيط الهندي التي كان يمارسها أولئك الرجال ، والتي كانت قوام حياة الناس في الكويت آنذاك ومصدر

رزقهم ومعاشهم قبل اكتشاف النفط .

إن رحلة ألن فيليرز وخطها الملاحي ما كانت كشفاً أوروبيّاً جديداً لتلك السواحل الشرقية ، وإنما دأب الأوروبيون منذ عصر النهضة على اكتشاف هذه الأصقاع وارتيادها هي وغيرها بدوافع شتى ، سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو توسعية . «فقد دعمت الرحلة - برية كانت أو بحرية ، وبطريق مباشر أو غير مباشر - النشاط الاستعماري الذي بلغ أوجه في القرن التاسع عشر حين اتسعت القاعدة الاقتصادية في أوروبا ، وازدهر التبادل التجاري ، وظهرت الرأسمالية الحديثة . وهو ما كثف من نشاط الرحلات بغية الكشف والتوسع الإقليمي وجلب الموارد الطبيعية من خارج أوروبا للاستخدام الصناعي ، وفتح أسواق عالمية للمنتجات . وفي هذا السياق قامت الرحلات ، سواء قام بها أفراد طوع إرادتهم أو كلفوا بها رسميّاً ، بدور مهم في تزويد الفكر الأوروبي بالمعلومات المفيدة والمثيرة عن العالم والإنسان[14] .

ومن هنا فقد كثر التفنيد لأهداف الرحلات الاستكشافية الأوروبية في البلاد الشرقية خاصة ، وربطها البعض بالاستشراق وغاياته غير النزيهة ، كالقول بأن «أدب الرحلات الغربي يعد حلقة من حلقات الاستشراق ، والاستشراق مهما تنوعت مظاهره البراقة يعد من تراث الإمبراطوريات الغربية ، التي كانت ولا تزال تحرص على دوام مصالحها في البلاد الأخرى . وحتى الرحلات العلمية كانت ترتبط بالسياسة لا بالحضارة ، ونادراً ما حادت عن أهدافها السياسية»[15] .

إن كون أدب الرحلات فرعاً من فروع الثقافة الإنسانية قد يجرنا إلى تأمل ما اقترحه إدوارد سعيد من ضرورة الربط بين الاستشراق والثقافة الغربية ، حين يقول :

«وكثيراً ما يفترض أن الأدب والثقافة بريئان سياسيّاً بل حتى تاريخيّاً ، ولكن الأمر بدا لي بصورة مطردة مغايراً لذلك ، وليس ثمة شك في أن دراستي للاستشراق قد أقنعتني بأن المجتمع والثقافة الأدبية لا يمكن أن يُفهما ويُدرسا إلا معاً»[16] . «ويبدو لي فيما يخص الإمبريالية والثقافة والاستشراق أن كل كاتب

من كتّاب القرن التاسع عشر يعي إلى درجة فائقة حقيقة الإمبراطورية . . وأن أي مختص فكتوري حديث لن يتردد طويلاً قبل أن يعترف بأن أبطال الثقافة التحررية من مثل جون ستيوارت ملْ ، وأرنولد ، وكارليل ، ونيومن ، وماكولي ، وراسكين ، وجورج إليوت ، بل حَتى ديكنز كانوا يحملون آراء محددة في العرقية والإمبريالية ، آراء من السهل رؤية فعاليتها في أعمالهم . ومن ثم فحتى المختص يجب أن يواجه معرفته بكون ملْ مثلاً أوضح في كتابيه (عن الحرية) و(الحكومة الممثّلة) أن آراءه فيهما لا يمكَن أن تطبق على الهند ؛ لأن الهنود كانوا حضارياً ، إن لم يكن عرقيّاً ، في مستوى أدنى»[17] .

«وتحت العنوان العام للمعرفة بالشرق ، وتحت مظلة التسلط الغربي على الشرق منذ نهاية القرن الثامن عشر ، برز شرق معقد متشابك ملائم للدراسة في البيئة الجامعية ، وللعرض في المتاحف ، وللاستنباء في المكاتب الاستعمارية ، وللإيضاح النظري في أطروحات الإنسان وعلوم الحياة والألسنية . . . إلخ . . ومع ذلك فإن على المرء أن يتساءل دائماً : هل ما يهم في الاستشراق هو المجموعة العامة من الأفكار التي تطغى على كتلة المادة ، ومن يستطيع أن ينكر أنها كانت أفكاراً مشبعة بمذاهب التفوق الأوروبي ، وبشتى أنواع العنصرية العرقية والإمبريالية وما إليها ، وبأفكار مذهبية جامدة عن (الشرقي) بوصفه تجريداً مثاليّاً ولا متغيراً؟ !»[18] .

بيد أن البعض الآخر بدا أكثر اعتدالاً حين لم يسلب الجهد الثقافي الغربي ، متمثلاً بأدب الرحلة والكتابة فيه ، أهدافه العلمية والموضوعية ، وإن لم يقلل في الوقت نفسه من أهمية الحذر والحيطة في مواجهة ما يسطره أولئك الغربيون عن بلادنا بالتقبل أو الرفض .

يقول حمد الجاسر في تقديمه لكتاب جاكلين بيرين : **اكتشاف جزيرة العرب** :

«إن القارئ العربي كثيراً ما تعتريه حالة من الريبة والشك حيال كتابات الغربيين عن العرب ، وهي حالة مع منافاتها للحكمة العربية القديمة (الحكمة

ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها) لا تتفق مع المنطق القويم في شيء ، فالحق يجب قبوله أيّاً كان مصدره ، والباطل لا يتوقف رفضه على معرفة مصدره ، وأولئك بحكم بعدهم عنا وجهلهم لأحوالنا في الماضي ، تشوب كتاباتهم عنا شوائب من الخطأ ، لا ينبغي أن تكون حائلاً بيننا وبين المعرفة ، بل الأجدر بها أن تكون من الحوافز التي تدفعنا إلى معرفة كل ما يكتب عن بلادنا وتاريخنا لنقبل الحق وننتفع به ، وننفي الزيف ونأباه»[19] .

منهج الكتاب وخطة البحث

يلاحظ الدارس لمؤلّف «أبناء السندباد» أن منهج الكتاب يكاد يقترب من التسجيل الوثائقي المحايد الذي يتحرى الحقائق بالمشاهدة والمعاينة المباشرة ، وتسجيل الملاحظات ، والتصوير الفوتوغرافي بعدسة الكاميرا . إن سمة التاريخ الاجتماعي تكاد تكون هي السمة الغالبة على هذا النمط من الكتابة المتحرية لمشاهد الحياة ودفقها الحي في الإنسان وبيئته ونشاطه وثقافته العابقة بالخصوصية والتميّز .

وبالرغم من امتزاج الحس الإنساني بالحقيقة المعرفية العارية كان المؤلف يحاول جاهداً ألا يملي آراءه الشخصية ومواقفه الذاتية إزاء ما يمر به من مشاهدات وأحداث وشخوص ، وإنما كان يتركها تتدفق كالأنهار الصغيرة الراكضة ، يستشرفها من علو ، شاخصاً بحياد لاصطخابها وسريانها في مجاهل الأرض وعروق الإنسان .

وعلى الرغم من هذا المنهج الحيادي الذي حاوله المؤلف ، فإن المتابع لهذا العمل الضخم الذي يقع في ست مئة صفحة من القطع الكبير يمكن أن يلاحظ جملة من الأمور التي قد تشكل في النهاية ما يمكن أن نسميه بالرؤية الغربية الخاصة بالكاتب . وهذه الرؤية - إن لم تنبع من الهوى والميل اللذين يمكن ترويضهما بالتفكير العلمي - هي لا محالة نابعة من الثقافة والتكوين والانتماء العرقي الذي يؤسس للاختلاف والتباين بين الشعوب . ومن هنا تتولد الدهشة

والغرابة ومكابدات التجريب والتعايش ، وما يتلو ذلك من محاولات الفهم والمقارنة والتبرير . وكلها حالات عايشها الكاتب وعرفها من وهج التجربة - الرحلة التي كانت بلا شك غنية ومؤثرة .

إن وجود هذه الرؤية المختلفة أو المغايرة للكاتب ، ولنسمِّها زاوية الرؤية الغربية ، سوف يضعنا أمام بانوراما ثرية من المفارقات في مستوياتها السلوكية والاجتماعية والفكرية ، وما يتعلق منها بعادات البشر وطبائعهم ، وطقوسهم الحياتية ، وسماتهم النفسية ، وموروثاتهم الموغلة في التاريخ والبيئة . وهذه البانوراما الصاخبة ليست كما يتبادر إلى الذهن فوضوية أو مختلطة ، وإنما يقسمها خط رهيف ، ويفرقها إلى ضفتين : نسمي الأولى رؤية العربي لذاته ، وهذه محكومة بالتلقائية والعفوية ، لكون هذا العربي يعيش في محيطه وبيئته ، ونسمي الأخرى رؤية الغربي له ، وهذه الرؤية تحكمها الدهشة والفضول ، ولذة الكشف والتجريب ، ومحاولات الفهم والتعلم والاستطلاع .

ولعلنا في هذا الموضوع من الاستطراد نستطيع أن نقول إن خطة هذا البحث سوف تقوم إذن على استشراف واستقصاء لجملة من الأمور والمواقف التي تتوازى فيها هاتان الرؤيتان وتتقابل ، ومن ثم تضعاننا أمام نمط من الحوار والتفاعل بين عالم يُكتَشَف ، وهو البلدان والموانئ العربية وإنسانها وبيئاتها ، وعقل يكتَشف وهو مؤلف الكتاب وصاحب التجربة ، سواء على متن مركب «فتح الخَير» في إبحاره المديد طوال تسعة أشهر ، أو على يابسة الموانئ في البلدان التي رسا فيها المركب تباعاً إلى أن انتهى إلى الكويت التي كانت ميداناً فسيحاً لمشاهدات الكاتب ومكابداته ، وخاصة عند انضمامه إلى رحلة الغوص على اللؤلؤ بما فيها من مشقة وكدح ، وآمال وخيبات .

هذا التقصي لزاويتي الرؤية سوف يشمل جملة من المحاور ستكون مدار هذا البحث ومادته ، وسنوردها كما يلي :

1 - الملاحة العربية في مواجهة النفوذ الأوروبي

تبدو الملاحة العربية - بالنسبة للكاتب وفهمه - منذ الوهلة الأولى محصورة بالممارسة والمهنة والتجربة العملية أكثر من كونها علماً نظرياً أو مصنفات أو كتباً . والكاتب بالرغم من إشادته الواضحة بالدور الذي قامت به الملاحة العربية في المناطق الاستوائية من المحيط الهندي ، وإشارته إلى كفاءة العرب في الملاحة الفلكية التي نبعت من علمهم بالفلك والرياضيات ، وذلك قبل أن يشق البرتغاليون الطريق حول رأس الرجاء الصالح ، بالرغم من ذلك يرى أن معارفهم الملاحية كانت تؤسس عن طريق الخبرة والممارسة العملية والاستفادة مما يعاينون ويخبرون من اتجاهات الرياح ومواسم هبوبها . وقد ظل هذا اللون من المعرفة الشفوية أكثر رسوخاً واستمراراً - في نظر الكاتب - وأدعى إلى الأخذ به والعمل بموجبه من الانكباب على التأليف أو التدبيج للحقائق النظرية عن علم الملاحة . يقول ألن فيليرز :

«حاولت بادئ ذي بدء أن أكتشف ما هو معروف عن الملاحة العربية ، وما هي المعلومات المكتوبة المتوفرة عنها ، غير أني لم أجد من ذلك شيئاً يذكر . فلقد علمت أنه ليس في اللغة العربية أية مراجع عنها ، بل ولا إشارة أقدم من تلك الإشارات المحدودة الموجودة في العهد القديم والمكتوبة باللغة العبرية»[20] .

ولعل ألن فيليرز قد جانبه الصواب في إيراد هذه الملاحظة ، أو قصّر في جهد البحث والتحري . فمن المعروف للمهتمين بالنشاط الملاحي العربي في المحيط الهندي والسواحل الشرقية أن هناك جملة من المؤلفات حول هذا الموضوع منذ القرن الرابع الهجري وما تلاه . منها كتاب «**عجائب الهند بره وبحره وجزايره**» لبرزك بن شهريار والذي طبع في ليدن سنة 1883م ، وتعود مخطوطته إلى القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي . وفيه أخبار عن ربابنة السفن وملاحيها ، وتعدّ حكاياته أصلاً للمرشدات البحرية والمصنفات الملاحية . وهناك كتاب «**سلسلة التواريخ**» لأبي زيد السيرافي الذي ذكر رحلة التاجر سليمان وتنقله بين موانئ البصرة وسيراف والهند والصين ، ووصفه لها ولمدنها وسكانها

ومحاصيلها وطرق معيشة أهلها[21] . أما ابن ماجد وكتابه «**الفوائد في أصول علم البحر والقواعد**» فجهد شهير في مجال الملاحة البحرية العربية[22] ، وقد ألّف في القرن العاشر الهجري «وفيه ذكر لتطور علم البحر على أيدي الربابنة الذين سبقوه ، وعلى إرشادات ومعلومات لربابنة السفن كي يحيطوا بها ويعرفوها . وفيه ذكر المنازل الفلكية والنجوم الملاحية ، وطريقة استعمال البوصلة ، واختلاف دورات مياه البحر . بالإضافة إلى وصف جغرافي للسواحل والمعالم المشهورة على الساحل العربي والفارسي والأفريقي والهندي»[23] . ويأتي سليمان المهري بعد ابن ماجد بنصف قرن (العاشر الهجري - السادس عشر الميلادي) ليقدم أهم مصنفاته الملاحية «**العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية**» عام 917هـ ، و«**المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر**»[24] .

ويبدو للناظر في كتاب «أبناء السندباد» أن جهد ألن فيليرز لم يكن منصبّاً بالدرجة الأولى على مسألة متابعة الاطلاع النظري على مؤلفات العرب حول الملاحة البحرية ، بقدر انصباب هذا الجهد على التجريب العملي والمعايشة المباشرة للإبحار الفعلي ، ومن ثم تسجيل هذه التجربة العملية في مؤلّف يوثق لها ويؤرخها . بيد أن موقف نجدي ربان «فتح الخير» من مسألة التأليف ما كان يعبّر عن الحماسة والرغبة نفسها ، فقد كتب فيليرز بصدد حديثه عن أول لقاء له مع نجدي قائلاً : «كان نجدي لا يعير بالاً لاهتمام الأوروبيين بتأليف الكتب ، فقد كان يكفيه كتاب واحد هو القرآن الكريم الذي لم يكن به حاجة إلى سواه . . . أما فيما يتعلق بقضية الكتب فقد أخبرني عليّ بأن نجدي مقتنع تماماً بأن عدد الكتب التي ألفها الأوروبيون عن العرب أكثر مما ينبغي ولا حاجة لمزيد منها . . . . وعلى الرغم من أن عليّاً أخبره بأني لن أكتب إلا عن البحر والمراكب والبحارة ، فإنه لم يقتنع بضرورة ذلك أو فائدته . ويبدو أنه لم يؤمن بأن البحر موضوع مناسب للكتابة ، بل كان يعتقد أن من الأفضل أن يُترك العرب وشأنهم ليقوموا برحلاتهم دون أن يقوم أحد بتسجيلها كما كان الحال معهم لعدة قرون»[25] .

وينبغي ألا يُفهم من هذا الاقتباس ما يشي به ظاهرياً من ميل إلى عدم الترحيب بالجهود المقترحة التي سوف يبذلها الرحالة ألن فيليرز في الكتابة عن

رحلة «فتح الخير» ، وإنما يبدو - وهذا ما أدركه الكاتب - أن هناك ميلاً لدى البحارة العرب «للسرية والتكتم لأسباب وجيهة ، فقد احتفظوا لأنفسهم بأسرار المهنة التي كانوا قد تعلموها بشق الأنفس»[26] . ويأتي من ضمن الأسباب الوجيهة للتكتم والانكفاء على الذات الخوف من النفوذ الأجنبي وبسط هيمنته على طرق التجارة وموانئها التي طالما كانت مسرحاً رحباً للسفن العربية وبضائعها منذ عهود بعيدة . لذلك لم يستغرب الكاتب أن نجديّاً لم يكن معجباً بفاسكو دا جاما أو برحلته ، وكان له فيها رأي مختلف عن رأي الأوروبيين :

«فلم يكن نجدي يرى في رحلة فاسكو دا جاما ما يلفت النظر على الإطلاق ، بل يرى فيها كثيراً مما يؤسف له . . . . أما الرحلة فإن نجدي ينظر لها كضربة من ضربات الحظ التي أحسن استغلالها وبولغ في الدعاية لها مبالغة كبيرة . كما يعتقد أن تلك الرحلة إلى الهند لم تكن لتنجح أبداً لو لم يستخدم فيها الأدلاء العرب الذين أرغموا على إرشاد الرجل تحت تهديد السلاح . ولم يكن الرجل الذي يكرمونه هو دا جاما أو أي برتغالي آخر ، بل ذلك النوخذة العربي المشهور ابن ماجد ، الذي يقولون إنه أرشد البرتغالي في رحلته من مالندي في شرق أفريقيا إلى كاليكوت على ساحل الهند الغربي . وكانوا سيمجدون ابن ماجد أكثر مما يفعلون حالياً لو أنه جعل مركب دا جاما ينغرز في في الرمال الضحلة على شواطئ جزر لكاديف . وهم ما زالوا لا يفهمون لماذا لم يفعل ابن ماجد ذلك فعلاً ، فقد كان باستطاعته أن يقضي على تلك المراكب بكل سهولة»[27] .

ويبدو أن الكاتب بدأ - ومن خلال إنصاته لآراء نجدي - يدرك وجاهة ذلك الموقف المتحفظ أو الكاره الذي يبديه العرب إزاء تغلغل النفوذ الأجنبي وهيمنته على خطوط الملاحة التجارية ، فيبدي الكاتب حينها شيئاً من التعاطف والفهم ويرى أن نجديّاً لم يجانب الصواب حين رأى أن التجارة العربية قد اقتصرت الآن على التجارة الساحلية والتهريب بسبب تلك المنافسة التجارية القاسية غير المتكافئة التي يستخدمها الأوروبيون ضدهم .

غير أن أمر العلاقة الملاحية المتوترة بين العرب والأوروبيين لم تقف عند حد النقاش الكلامي وتدبيج الآراء النظرية ، وإنما شاءت ظروف الرحلة التجارية على متن «فتح الخير» أن يخبرها الجميع على أرض الواقع . فبعد صعوبات جمة واجهت عملية الرسو في ميناء مقاديشو الصومالي الذي يهيمن عليه الإيطاليون ، فوجئ الجميع بأن السلطات الإيطالية تمنع نزول المسافرين منعاً باتّاً . وقد كانت خيبة الأمل كبيرة ، وبخاصة عند أولئك الركاب الذين كان الانتقال من موانئ الجزيرة العربية إلى الصومال هو غايتهم الوحيدة من السفر . أما أسباب عدم السماح بالنزول للركاب العرب في ميناء مقاديشو فيلخصه الكاتب بقوله :

«كان الإيطاليون ينظرون شزراً إلى أولئك المغامرين القادمين من الجزيرة العربية الذين لا هم لهم إلا الحصول على بعض المال وإخراجه من تلك البلاد ، بدلاً من المساهمة في تنمية الثروة القومية . ولذلك يجب ألا يلام الإيطاليون إذا لم يعتبروا العربي العادي أفضل أنواع المهاجرين . فعلى الرغم مما كان عملاء الدعاية الإيطاليون يقولونه في أماكن أخرى ، كان واضحاً تماماً في موقاديشو أنهم كانوا ينظرون إلى العرب نظرتهم إلى مجموعة قذرة ، لئيمة ، مفككة من الناس ، تتصف بالجشع والتعصب والمشاكسة وعدم الانضباط وقلة المهارة في العمل . لقد كان العرب باختصار ذلك النوع من المهاجرين غير المرغوب فيهم من أي وجه من الوجوه . بل كان الإيطاليون يتهمون العرب بأن لهم علاقة بكل تجارة محرمة ، وبأنهم غير قادرين على إنتاج شيء على الإطلاق سوى المؤامرات والتهريب . كما كانوا يخشون أن يقوم العرب بزرع بذور الشقاق بين الصوماليين والأحباش من جهة ، والإيطاليين من جهة أخرى . وباختصار ، لم يكن الإيطاليون يرحبون بالعرب ، سواء كانوا مهاجرين أم تجاراً أم أصحاب سفن تجارية ، ولم يكونوا يستخدمون بعضهم إلا للقيام بالأعمال الوضيعة كشق الطرق وما شابه ذلك من المشاريع»[28] .

وكما فسر الكاتب وجهة النظر الإيطالية إزاء العرب المهاجرين إلى الساحل الأفريقي ، نجده في المقابل يفسر موقف العرب من أولئك الإيطاليين بشيء من

الواقعية والحياد . «أما العرب فقد كانوا بدورهم يكرهون الإيطاليين ؛ إذ لم يكن بإمكانهم أن يحترموا ذلك الأوروبي الذي كان يتصف بجميع صفاتهم السيئة ، ولكنه لا يتحلى بأي من فضائلهم . والواقع أن الموظفين الصغار الذين كان العرب يحتكون بهم ، كانوا في معظم الحالات لا يقلون صخباً وسرعة غضب وجشعاً ، بل وقلة أمانة من أي عماني مهرب أو كويتي حصيف . كما أن بعضهم كان عرضة للرشوة ، ولذلك لم يكن العرب يحترمون أيّاً منهم . كما كان الصوماليون يكرهونهم ، ولم يكن أحد يستطيع أن يسامحهم لما فعلوه في الحبشة . لقد كان العرب يحترمون الإنجليز ، لأنهم كانوا يستطيعون القيام ببعض الأعمال التي لا يمكنهم هم القيام بها ، ويحترمون الألمان لكفاءتهم ودقتهم في العمل ، ولكنهم كانوا يسخرون من الإيطاليين الذين يحتكون بهم في بلاد الصومال»[29] .

إن قضية النفور والعدوانية الخفية والمعلنة بين العرب والأوروبيين على طول السواحل العربي والإفريقية لا تقف كما يلاحظ عند حد العداء الظاهري الساذج ، وإنما يبدو أن لهذا الأمر صلة بأسباب جوهرية لها علاقة بالنظم وسبل الإدارة والقوانين التي استنها الأوروبيون في مستعمراتهم ، وبخاصة ما يتعلق بالممارسات التجارية والضرائب وخدمات الموانئ وإجراءات التسجيل والتوثيق . لقد كانت تلك الإجراءات نظماً أساسية بالنسبة للأوروبيين تحقق لهم الكثير من المكاسب الاقتصادية ، في حين كانت تُقابل هذه الإجراءات والنظم بالرفض والازدراء والتنصل من قبل التجار العرب الذين ، كما يبدو ، رأوا فيها لوناً من الهيمنة الاقتصادية والسياسية غير المقبولة على أرزاقهم ومعاشهم . ومن هنا لم يكن هناك بد من مواجهة هذه النظم (المتعسفة) بمحاولات التهريب والتحايل والتنصل أو التجاهل ، وهو الأمر الذي طالما أوقع ببعضهم عقوبات قاسية وشديدة .

وقد التفت الكاتب في مواضع كثيرة من كتابه إلى ظاهرة التهريب التي كانت متفشية في المراكب العربية وبين تجارها (حضارمة ، عمانيون ، كويتيون) ،

وبخاصة تهريب العملات الأجنبية والبضائع الخفيفة ، بل قد يتعدى الأمر إلى تمرير ما هو أكبر من ذلك ، كأطنان الملح وحمولات أخشاب المنجروف . وقد روى لنا الكاتب بالكثير من التفصيل قصة سليمان بن سعيد الذي حاول تهريب مئتي طن من الملح في ميناء حيفون ، وانتهى به الأمر إلى أيدي السلطات الإيطالية التي غرمته ألف (1000) روبية ، وطالبته بمغادرة الميناء . وكذلك أورد لنا المؤلف وصفاً دقيقاً تغلب عليه روح الفكاهة والهزل لطقوس التهريب التي طالما مارسها مهرب محترف وشخصية مثيرة مثل العماني سعيد الصوري . يقول :

«فقد كان سعيد ذاهباً بإحدى مهام التهريب ، وكان أمراً ممتعاً حقّاً أن يرقبه المرء ويرى كيف يجهز نفسه لذلك . وكان أول ما فعله أن لف ست أحزمة للنقود حول خصره ، ثم غطى هذه الأحزمة بثلاث وزارات من النوع الجيد ، أضاف إليها بعد ذلك وزارين من النوع الرديء . ثم ألقى على ظهره العاري قماش ثلاث عمائم مزركشة من ذات الشراشيب . وعندما انتهى من ذلك لف مزيداً من الوزارات والعمائم حول فخذيه ، أربعاً حول كل فخذ ، أضاف إليها اثنتين حول ركبتيه . ثم ارتدى جلباباً جديداً فوق ذلك كله ، واتبعه بجلباب آخر قديم ملأ جيوبه بزجاجات العطر . وبعد ذلك لف عمامة جديدة على رأسه بكل عناية ، ثم وضع فوقها عمامته القديمة بعد أن لف رزمة من الحشيش في إحدى زواياها . فأصبح مظهره بعد أن ارتدى ذلك كله مظهر رجل بدين ، مع أنه في الواقع رجل نحيف جداً . وفي الختام حشا في جيوبه بعض السبحات التي صنعت حباتها من الكهرمان الألماني الصناعي ، ونادى غلامه محمداً ، وأخذ يجهزه بنفس الطريقة»[30] .

والكاتب في مشاهداته ومتابعاته لأنشطة التهريب كان بوصفه رجلاً غربيّاً ، يؤمن بأن «هذا كله كان عملاً غير مشروع ، وينبغي أن يُشجب شجباً كاملاً»[31] إلا أنه بالرغم من ذلك كان يحاول أن يضع نفسه في مكان أولئك التجار المهربين ، ويرى بعيونهم ، ويتلبس شخصياتهم وأفكارهم ليصل في

النهاية إلى تبرير مقنع بوجوه نشاطهم غير المشروع ، فيراها بعد ذلك في إطار من القبول والشرعية ، على الأقل من وجهة نظرهم هم إن لم يكن من وجهة نظره بوصفه أوروبياً . يقول عن سعيد الصوري كبير المهربين كما سماه :

«لقد كان رجلاً واقعيّاً جداً ، وكان يقوم بعمليات التهريب كأنها لعبة مسلية . أما ازدراؤه الواضح لعالمنا المحكوم بالقوانين والأنظمة وعدم اكتراثه به ، فإني أعترف أني لا أستطيع أن ألومه على ذلك ، فنحن الأوروبيين لم نحاول أن نيسر الحياة بالنسبة للعرب ، بل إن كثيراً مما نقوم به ليس له معنى بالنسبة لهم . فقد كانوا مثلاً يأتون إلى هذا الساحل الإفريقي ليقوموا ببعض العمليات التجارية ، وكانوا يقومون بها فعلاً ، سواء رضي الأوروبيون بذلك أم لم يرضوا . ولم يكن بإمكان الإيطاليين أو سواهم وضع حد لهذه التجارة . كما كانت لهم فلسفتهم الخاصة في الحياة ، وما دام ما يقومون به يتمشى مع فلسفتهم ومعاييرهم الخاصة ، فليس باستطاعتي أن أعيب عليهم ذلك»[32] .

ثم إن الكاتب في مقام تعاطفه مع التجار العرب وتمردهم على الأنظمة الصارمة والعراقيل التي أدار بها الأوروبيون مستعمراتهم ، ينبري تحت تأثير من الشعور بضرورة محاسبة النفس إلى الاعتراف بالدور غير النزيه الذي قام به روادهم الأوائل من الأوروبيين في تجارتهم البحرية التي كانت أقرب إلى القرصنة والاجتياح ، والتي تمخضت في النهاية عن تأسيس الإمبراطوريات بغير وجه حق . يقول الكاتب في معرض تعليقه على نشاط التجار العرب في التهريب :

«وما العيب في ذلك؟ ألم تتطور تجارتنا البحرية وتنمو بنفس الطريقة تقريباً؟ ألم تكن تلك الصفات التي يتحلى بها سعيد وأمثاله هي الصفات الحميدة التي نسبغها على روادنا الأوائل؟ لقد قام مغامرونا بالتجوال في جميع أنحاء المعمورة على ظهور مراكبهم الصغيرة ، ففتحوا لنا الطرق البحرية ، وأرسوا لنا أسس الإمبراطوريات . إلا أن سعيد المسكين لم يكن يحاول إلا أن يضع الأسس التي تؤمن له سبل العيش الكريم ، كما لم يكن لدى أي من زملائه العرب الآخرين أي اهتمام بإنشاء الإمبراطوريات . لذلك فإن ذلك النظام المعقد

وغير العملي من الأنظمة الصارمة المتزمتة التي نهدف بواسطتها إلى السيطرة على هذا العالم ، ذلك النظام كان نكتة ثقيلة بالنسبة لسعيد وأمثاله»[33] .

لعل اللافت للنظر في هذا المقام أن الكاتب لا يتعاطف كلامياً فقط مع التجار العرب المهربين للبضائع ممن يقعون بأيدي السلطات وتُفرض عليهم العقوبات القاسية ، بل نراه في أثناء حادثة إلقاء القبض على سليمان بن سعيد يسهم بنفسه في تخليص الرجل من المأزق الكبير الذي وقع فيه . فقد كان من المألوف كما يبدو أن يسارع البحارة والتجار العرب إلى مساندة بعضهم بعضاً حين وقوع الأزمات . وهذا ما حدث حين اعتقال سليمان بن سعيد بتهمة تهريب مئتي طن من الملح في ميناء حيفون ، وقد كانت الغرامة جسيمة تصل إلى ألف روبية مما استحال معه توفير هذا المبلغ الذي يعد ثروة كبيرة في المشرق حينذاك . فتسارع ركاب «فتح الخير» إلى إنقاذ الرجل بتجميع مبالغ مما يستطيعون حتى وصل المجموع إلى ست مئة روبية فقط . وهنا نجد الكاتب ألن فيليرز يسارع لتكملة المبلغ ، ويتبرع بمفرده بمبلغ أربع مئة روبية لإنقاذ الرجل من ورطته . وقد تمت هذه العملية الإنسانية على الرغم من أن سليمان بن سعيد لم يكن من ركاب فتح الخير ، وإنما كانت له «بغلته»[34] الخاصة التي صاحبت فتح الخير في رحلتها إلى ميناء حيفون الإفريقي .

2 – تقريب العدسة : الغربيون من وجهة نظر «نجدي»

إلى جانب ذلك الموقف العام (غير المتهادن) بين العرب والأوروبيين على طول السواحل العربية والإفريقية ، والذي رصدته عين الكاتب في أثناء إبحاره على متن فتح الخير ، نراه في الجزء الأكبر من الكتاب يركز بؤرة رؤيته بشكل أقرب على شخوص فتح الخير ورجاله ؛ إذ إنهم يمثلون مادة بحثه ومدار تجربته . فتزداد لديه سمة الشغف بالاستماع والملاحظة واستشفاف الآراء والمعتقدات ، ثم اللجوء إلى تسجيل كل ذلك ليتوصل في النهاية إلى رسم كامل لشخصية محدثه وتوجهاته .

ولعل هذا يصدق خير ما يصدق على تأنيه البالغ في رسم شخصية نجدي

ربان بوم «فتح الخير» ، وإصغائه لآرائه في الأوروبيين خاصة . وقد عرف الكاتب في نجدي ثقته في نفسه واعتزازه بآرائه وعدم تحفظه أو مجاملته فيما يختص برؤيته الشخصية للأوروبيين ، والتي طالما صرح بها في خطبه لركاب سفينته أو في أثناء نقاشاته المتعددة وأحاديثه مع المؤلف ، على حين بدا المؤلف مستمعاً صبوراً ومتفهماً لنقد نجدي للغربيين وحياتهم وقيمهم . يقول :

«وكان هذا كله موضع الحديث الممتع الذي كان يدور مع نجدي في صباح ذلك اليوم الجميل ، ومركبنا ينساب بلطف بمحاذاة جزيرة زنجبار . وقد كان بإمكاني أن أطيل الحديث معه وأن أستمع إليه بصبر أكثر ، لو لم يكن دائماً يصر على أنه على صواب ، وأن ما يقوله هو الحق الذي لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من أمامه . فهو يعتقد اعتقاداً جازماً بأن الأوروبيين شعب مقضي عليه بالاضمحلال ، وأنهم من الغباء بحيث لا يستحقون أن يكترث بهم الإنسان ، وأنهم لم يعودوا حتى من أهل الكتاب ، لأن من الواضح أنهم لم يعودوا يتبعون ما جاء في ذلك الكتاب ، وأن الميزة الوحيدة التي انفردوا بها كانت تقتصر على تفوقهم المالي والعسكري ، وهو التفوق الذي سمح به الله تعالى لحكمة لا يعلمها إلا هو . فربما كانت هذه هي طريقته في تلقين العرب المتراخين درساً لا ينسونه ، وفي تزويد الأوروبيين بوسيلة يقضون بها على أنفسهم . ولكن الله واسع العلم ، عظيم الحكمة ، ولا بد أنه قرر أن أيام الأوروبيين قد أصبحت معدودة ، وأن أمجاد العرب الأولى ستعود عما قريب . وعندما كان نجدي يصل إلى مثل هذه الخاتمة ، كنت تستطيع أن تسمع الجميع بمن فيهم العمانيون وحمد ابن سالم يرددون كلمة «طيب» تأييداً لما يسمعون ، أما أنا فقد كنت ألزم الصمت»[35] .

«بالأمس القريب ، منذ سنة خلت فقط ، كان كل شيء على ما يرام ، وكان محصول القرنفل ممتازاً ، والأسعار جيدة ، وكانت الأموال وفيرة عند العرب ، والتجارة مزدهرة ازدهاراً كبيراً . فكان يتساءل كيف يمكن أن تكون الأمور بهذا السوء الآن ، إذا كانت جيدة في العام الفائت دون أن يجد جواباً

على ذلك . . . وأخيراً وجد نجدي الجواب . لقد كان الذنب ذنب الأوروبيين وحدهم . فقد كانت مساوئ العالم كله من فعلهم ، بسبب تلك الحياة غير الطبيعية وغير المتزنة التي يحيونها ، فقد خلقوا الفوضى في العالم كله بسبب ابتعادهم عن المثل العليا والمبادئ السامية ، وبسبب جشعهم وحسدهم القاتل لجميع شعوب الأرض ولبعضهم بعضاً أيضاً . وعليهم إذا أرادوا إصلاح ما خربوه أن يعودوا إلى الله وأن يحافظوا على نسائهم . هذان هما المبدأان الرئيسان والضرورتان الماستان في رأي نجدي : الإيمان بالله والسيطرة على النساء . وهو يعتقد أن الأوروبيين جميعاً لم يفقدوا اتزانهم إلا بإهمالهم هذين المبدأين ، وبعملهم هذا فهم يجرون بقية العالم إلى الدمار . . . ولم يكف نجدي عن الكلام ، ولم أعترض على كلامه إطلاقاً ، فلم يكن لذلك فائدة ترجى ، فقد كان متأكداً من أنه على صواب»[36] .

3 - شخصيات «فتح الخير» في ميزان القياس والتقييم

لم يكن ألن فيليرز معنيّاً بأية حال بالرد على أقوال نجدي أو مناقشته في آرائه حول الأوروبيين وقيمهم وحياتهم ، بقدر ما كان معنيّاً في المقام الأول بدراسة تلك الشخصيات العربية التي التقاها على متن بوم «فتح الخير» . لقد بذل المؤلف في كتابه جهداً عظيماً في التقصي والوصف والاستطلاع ، وفي التوغل في دقائق الأحوال والنفوس ، وفي تتبع طقوس العمل والغناء والعبادة وغيرها من مظاهر النشاط اليومي . وهو خلال هذا التقصي كان يصدر عن منزعين :

الأول : التقدير الجم لشخوص أولئك البحارة العرب وسماتهم الإنسانية وفضائلهم النفسية ، والثناء على مهارتهم في العمل وجلدهم عليه .

الثاني : نعيه الخفي على بعض ما لا يقره أو ما لا يستطيع فهمه أو تقبله من طبائع وسمات أولئك ، كالميل إلى التواكل والإيمان بالقدرية المطلقة ، وموقفهم المتساهل من الزمن ، والتخلف المعرفي ، ورثاثة الحال . . إلخ .

وبالرغم من محاولة الكاتب الدؤوب للتمسك بالموضوعية والحياد في

تقويم الشخوص ، وملامحهم النفسية والاجتماعية ، فإن تحليله لم يخلُ من شوائب تكوينه الثقافي ومنطلقه الفكري اللذين قلما يمكن التغلب عليهما أو طرحهما جانباً حين النظر إلى ثقافة الآخر . ويكفي الاستشهاد بالفقرة التالية للتدليل على اختلاف الرأي والنظرة للأمور الدينية والتوجهات العقائدية بين الكاتب وشخوص مركب «فتح الخير» .

يقول المؤلف بصدد الحديث عن «عبدالله» شقيق نجدي :

«أما عبدالله ، ذلك الإنسان الغامض فلا بد أنه كان خطراً على المجتمع أينما حل . فقد كانت أكثر نشاطاته براءة قيامه بجمع بعض التبرعات لإحدى الطوائف الدينية ، وكان هذا النشاط مكروهاً من الإيطاليين والبريطانيين على السواء ، لأنه كان عبئاً على الثروة الإفريقية ولا يخدم هدفاً مفيداً . وقد كان من الواضح أن عبدالله كان عميلاً من نوع ما»[37] .

هذه النزعة من عدم القدرة عن الانسلاخ عن تصورات الغربي المسيحي للداعية المسلم في البلاد الإفريقية جعلت «عبدالله» في نظر المؤلف «خطراً على المجتمع» و«عميلاً» وعمله «مكروهاً من الإيطاليين والبريطانيين على السواء» !

وعلى الرغم من ذلك يمكن القول بأن أمثلة هذه المواقف الدالة على التحيز وسوء فهم الآخر بدت نادرة وقليلة ، إذ طالما كان المؤلف يجتهد في تسويغ ما يراه مختلفاً أو خارجاً عن إطار ثقافته وتكوينه الفكري . ولذلك يمكن القول إن كلا المنزعين : الألفة مع الأشياء والظواهر أو استهجانها كانا يتجاوران في نفس الكاتب ويتآلفان ، مما يقربه من صورة للحياة الإنسانية أكثر اتساقاً وواقعية ، صورة تعينه على رؤية أولئك البحارة العرب على فطرتهم وتلقائيتهم ، وقوتهم وضعفهم ، وعراكهم المستمر مع إشكالات العيش وتحدياته .

ولعل الفهم الأمثل لشخصيات «فتح الخير» وأدوارهم المؤثرة لا يتأتى بأية حال دون تصور مسبق لكونهم يتحركون داخل بناء سردي يتنامى على شكل قصة واقعية امتلكت كامل عناصرها الفنية . إن اختيار الكاتب لشكل أدب

الرحلات أهّل كتاب «أبناء السندباد» لهذا الملمح القصصي بكفاءة لافتة ، وجعل العنصر الأكثر بروزاً وتأثيراً هو العنصر الدرامي الأقرب إلى الحكاية المتسلسلة المبنية على الصراع . وهذا اللون من الدراما الحكائية عادة ما يتنامى بناؤها وتُحكم حبكتها بفعل الشخصيات وحضورها المؤثر في البناء السردي . في «أبناء السندباد» يتخذ عنصر الشخصيات بعداً دراميّاً وإنسانيّاً مهمّاً ، بل إن هيكل العمل يكاد ينبني أصلاً على تلك الشخصيات التي كانت تحرك الأحداث وتخلقها ، وتحل في زمنها ومكانها بكفاءة ، بل تمتلك تلك القدرة على أن تشع بجملة من الملامح المميزة والفارقة التي كانت موضع احتفاء الكاتب وشغفه . وينبغي في هذا السياق أن نضع في الاعتبار زاوية الرؤية الخاصة بالكاتب ، والتي كانت تعطي لتحليلاته نكهة فريدة صادرة ولا شك من تكوينه الثقافي وخلفيته الأوروبية .

لا يستطيع قارئ كتاب «أبناء السندباد» بأية حال أن يفهم تلك الشخصيات العربية ويقيس أبعادها الإنسانية كما رآها ألن فيليرز إلا إذا وضع في اعتباره في المقام الأول محيطها الذي تتحرك فيه ، ونعني به بوم «فتح الخير» ، ذلك المركب الشراعي الذي كان موضع شغف الكاتب ومَعين إلهامه ، إذ طالما كانت السفن الشراعية العربية والرغبة في ركوبها والكتابة عنها ، أو الحلم باقتنائها من أهم الحوافز التي حركت الكاتب لخوض غمار مثل هذه الرحلة الملاحية ، إذ إن هذه السفن آخر ما تبقى من «سحر الشرق القديم» على حد تعبيره .

إن بوم «فتح الخير» لا يمثل فقط المحيط المكاني لتجربة الكاتب الغنية ، وإنما يحمل كذلك ملامح زمن له خصوصيته وظلاله ، وله إيقاعه المستأني الفواح بنكهة المحلية الصرف . والمركب بتلك السمة المكانية والزمانية كان يتيح للشخوص التي تدب على ظهره أن تتلبس أجواءه من جهة ، وأن تشع وتتجلى بملامحها الإنسانية المميزة من جهة أخرى . ومن هنا قد لا يستغرب القارئ ذلك التوحد بين الرجال ومركبهم ، بين الحبال والأشرعة والأخشاب الرطبة من جهة ، وبين الزنود والعروق النافرة والغناء الشجي المتوحش من جهة أخرى . هذا

التوحد والتكامل في صور الحياة وطقوسها هو إحدى ميزات هذا الكتاب وإحدى نوافذه الواسعة التي كانت تتيح أكبر مجال للرؤية والاستشراف والتقويم .

أحوال ومواقف

أ - أحوال تستدعي التهكم

حين أزجى الكاتب حديثه المستأني عن شخصيات «فتح الخير» ورجاله ، ما كان يراهم بمعزل عن سماتهم الشرقية وتكوينهم الثقافي وجنسهم العربي ، بل كانت عينه الثاقبة وذوقه الغربي يلتقطان بشغف (اختلافات) هؤلاء ، فيقف عندها ويراجعها مقارناً بينها وبين ما قرّ في نفسه من اعتقادات ومفاهيم خاصة به حول هذا الموقف أو تلك الحالة . وما كانت أحوال أولئك و(اختلافاتهم) تقع مواقعها الحسنة أو المقبولة في نفس الكاتب دائماً ، وإنما كان بتلقائيته وعفويته مُهيّأ للاستخفاف أو النفور أو التهكم اللاذع حسب مقتضى تلك الأحوال وتقلباتها . من أمثلة ذلك استنكاره لظاهرة التواكل المبالغ فيه ، والتي تستحيل في مواقف كثيرة - في نظره - إلى لون من التواكل الذي يستدعي في نفسه حسّاً تهكميّاً لاذعاً ، كقوله معلقاً على بدء إبحار «فتح الخير» :

«وكان من المؤكد أن المركب سيزور موانئ المكلا وشحر ، وربما أيضاً موانئ حامي وسيحوت شرقاً . وكان كل شيء يتوقف على مشيئة الله ، والله طبعاً يعلم عن رحلة نجدي القادمة أكثر مما يعلم نجدي نفسه أو أي إنسان آخر على سطح المركب . ومهما يكن من أمر فمن المتوقع أن يصل في النهاية بمشيئة الله إلى زنجبار ومن هناك يعود بطريقة ما إلى الخليج العربي . . . . وباختصار فإن وجهة السفر لم تكن محددة تماماً» .

ويقول في موضع آخر :

«عندما استمر سكون الريح لم يعد بإمكاننا متابعة الإبحار . . . ولم يكن نجدي من أولئك الناس الذين يجزعون إذا أصبحت الظروف معاكسة ، بل كان

يجلس وينتظر أن تتغير الظروف . فقد كان سكون الريح يتم بإرادة الله الذي سيحرك الهواء إذا شاء ، عندما يشاء ، كما سكنها في البدء . وعلى هذا فليس لأحد أن يعترض على إرادة الله أو ينزعج منها ؛ لأن أحداً لا يستطيع أن يغير من الأمر شيئاً»[38] .

وكثيراً ما كانت درجة التهكم لدى الكاتب تصل إلى ذروتها حين يواجه بتلك القدرية اللافتة التي تسير حياة أولئك الناس ونمط تفكيرهم ، والتي يعتقد بأنها وراء الكثير من المشكلات وصنوف البلاء ، يقول :

«لم تمض عشرون دقيقة على رسونا ، حتى كان طبيب الميناء (في ممباسا) قد اعتلى ظهر المركب . . . وقد سمعت نجدي ينكر حدوث أية أمراض أو وفيات على ظهر مركبه . . . إلا أن المشكلة من وجهة نظر الطبيب ، أنه إذا حدث أن انتشر أي مرض معد ، فإن العرب يفعلون المستحيل لكي يخفوا كل أثر له ، لأنهم بسبب اتكاليتهم المعروفة يعتقدون أن جميع الأمراض ليست إلا تعبيراً عن إرادة الله ، ولذلك فإنهم ينظرون إلى عملية الحجر الصحي نظرتهم إلى واحد من تلك العقبات التي يفرضها عليهم الأوروبيون دون مبرر ، ولهذا السبب فإن عليهم أن يتجنبوها بأي ثمن»[39] .

ويعلق على ما سمعه من أحد النواخذة حول غرق بوم كبير :

«لقد كان غرق البوم الكبير بحسب رأيه عملاً إلهياً ، فقد شاءت إرادة الله أن يغرق . ولكني لم أقتنع بهذا الكلام بالطبع ، وكنت موقناً بأن خطأ جسيماً لا بد أن يكون قد وقع أثناء بناء المركب غير إرادة الله ، مما جعله لا يستطيع مقاومة هبة واحدة من الريح وزخة واحدة من المطر ، فقد كان الأمر غريباً جداً . وعندما سألته لماذا لم يغط الحمولة بما يحميها من المطر ، أجاب بأنه لم يفعل ذلك لأنه لم يتوقع هطول المطر ، إلا أن الله أرسله لحكمة لا يعلمها إلا هو . لقد شاءت إرادة الله بألا يكمل المركب الكبير رحلته الأولى !»[40] .

وإذا كان للكاتب ألن فيليرز رأي قاس في مسألة إيمان العرب المطلق

بالقدرية التي لا راد لها ، وبالانسياق وراء اتكالية قد تقود إلى الهلاك ، فإنه بدا متهاوناً أو على الأقل مستمتعاً بموقفهم المتساهل واللامبالي من الزمن وجريانه على سجيته ، وهو الأمر الذي يستحق أن يعيشه هو أيضاً ويلتذ بتجريبه . ومن هنا بدأ الكاتب يوطن نفسه على القبول والتعايش مع زمن أولئك البحارة ، وهو زمن مسفوح لا حدود له ولا أرقام ولا تواريخ ، وأن ينسلخ شيئاً فشيّاً عن زمنه الأوروبي المقنن المنذور للخطط والنظام الذي لا يحتمله واقع الحال على متن «فتح الخير» :

«أما الزمن فلم يكن له حساب . . . وعندما يكون الأمر كذلك وتكون السنة بأكملها لا أهمية لها ، فما أهمية الأشهر والأيام؟ لقد وجدت ذلك الوضع الذي لا حساب للوقت فيه ، وتلك الحياة الهادئة التي لا يعكر صفوها معكر وضعاً لطيفاً ، وقد بدأت استمرئ تلك الحياة ، وأتخلى عن اهتمامي السابق بالزمن والتاريخ ، بينما شغلت نفسي بالعناية بصحة البحارة وبتعلم ما يمكنني تعلمه» ويقول في موضع آخر :

«لم يكن هذا المركب يعرف الروتين ، كما لم يكن له جدول محدد ، فلم يكن أحد يهتم باليوم أو التاريخ ؛ لأن الأيام لم تكن بالنسبة لهم فترات محددة مميزة لكي يقوموا بتسميتها وعدها والتحسر عليها عندما تنقضي . وقد عجبت للسهولة الكبيرة التي تكيفت بها مع البحارة ، وأصبحت مثلهم لا أهتم بالزمن . وقد شعرت بالسعادة فعلاً عندما انتابني ذلك الشعور ، فلماذا يهتم الناس بتحديد الأيام؟ فقد كانت الشمس تشرق وتغيب بإرادة الله ، وكانت الأيام خيراً وبركة . لقد كانت حياة أولئك البحارة بدائية ، ولكنها كانت تبعث في النفس شعوراً غريباً بالراحة والقناعة والاطمئنان»[41] .

ب - أحوال تستدعي التعاطف والرثاء

وهكذا يظل الكاتب ، على الرغم من واقع الاختلاف في التكوين والثقافة والرؤية ، محافظاً على قاعدة ذهبية حاول جاهداً أن يلزم نفسه بها ، وهي ضرورة التعاطف والتعايش أولاً ، ثم فهم المسوغات والتبريرات ثانيّاً ، ليتسنى له

بعد ذلك التعلم وجمع المعلومات والمعارف . ولعل سمة التعاطف لم تقف لديه عند حد العناية بالمرضى منهم وتقديم ما يملك من أدوية وإسعافات أولية ونصائح مفيدة ، وإنما يتضح ذلك أيضاً في نظرته الراثية المشفقة إلى حال بعض الركاب المسافرين ورثاثتهم ورقّة حالهم وكفافهم في المأكل والملبس والراحة ، وبخاصة أولئك البدو المسافرون من حضرموت إلى ممباسا .

ولعل شعور الشفقة والرثاء لدى الكاتب كان قد بلغ مداه وهو يعاين بعض المشاهد التي رأى بها المرأة ! فأول عهده برؤية النساء على ظهر «فتح الخير» يتمثل في مشهد نقل النساء المسافرات من حضرموت :

«ما هذا؟ لقد كان شيء غريب يحدث في ذلك الجو غير العادي . فقد لاحظت أنهم كانوا يواصلون حمل رزم طويلة غريبة ملفوفة بالسواد ، وينقلونها واحدة بعد الأخرى بشيء من العناية إلى حيث تختفي في الحال في الظلام المخيم تحت المؤخرة ، وكان من الواضح أن تلك الرزم كانت تخزن في القمرة الكبيرة . . . فكررت السؤال مستفسراً عن تلك الرزم . . . فأجاب وهو يجري : بنات . ماذا بحق السماء ! نساء؟ ! لا بد أنهم نقلوا حوالي خمس عشرة من تلك الرزم . . . مسكينات هؤلاء الفتيات ، لقد كن كبقية الفتيات صغيرات الحجم ، ثم رأيت فيما بعد واحدة منهن تسقط من اللفة التي كانت فيها ، وفي الحال هبت واقفة وجرت برشاقة وهي تمسك بالحجاب أمام عينيها إلى الباب الذي كان يؤدي إلى السجن . . . ولم أفهم ما الذي كان طيباً أو حسناً في ذلك المكان سوى أنه مكان لعزل الجنسين عن بعضهما . . . إذ يبدو أن الذكور والإناث في الجزيرة العربية يجب أن يفصلا عن بعضهما بأي ثمن حتى ولو مات بعضهم ثمناً لذلك ، وقد مات البعض منهن فعلاً على ظهر «فتح الخير» قبل أن تأتي الرحلة إلى نهايتها»[42] .

وتزداد شفقة الكاتب على النساء بعد مضي شهر على احتجازهن بوصفهن مسافرات في قمرة رطبة موبوءة لا تتوافر فيها أدنى شروط الحياة . وتبلغ تلك الشفقة ذروتها حين يستدعى لمعاينة فتاة قضت نحبها في تلك

القمرة . يقول :

«كان المنظر في القمرة الكبيرة لا يُنسى . . . وكانت الغرفة شديدة الظلام عندما دخلناها ، حتى إننا لم نتمكن من رؤية شيء على الرغم من أن الباب كان مفتوحاً . وبعد لحظات تمكنت من الرؤية ، فرأيت مجموعة من النساء التي كانت تتألف من اثنتي عشرة امرأة أو تزيد ، وهن مجللات بالسواد ومكومات على الحصر أو البسط البدوية . . . وفي تلك الظلمة الداكنة لم أستطع في بادئ الأمر أن أرى الموضع الذي كانت الفتاة المتوفاة فيه ، ثم تبينت أنها كانت ممددة على الأرض في وسط الغرفة ، وكان وجهها مكشوفاً ما دامت قد فارقت الحياة الآن . وكم كانت دهشتي عندما نظرت إلى ذلك الوجه فوجدته وجهاً جميلاً ، وقد كان شيئاً مروعاً أن أقع على وجه بهذ الجمال في مكان لم أكن أتوقع أن أجد فيه شيئاً جميلاً . . . كان ينبغي ألا تكون هذه الفتاة هناك في الأصل ، في ذلك السجن الرهيب المتنقل ، لكي تنقل إلى حريم أحد الرجال في زنجبار ، وتزف إلى رجل لم تره في حياتها قط ، في جزيرة نائية عن أهلها وبلدها»[43] .

ج - مشكلة تذوق الفنون البحرية

بيد أن شعور التعاطف والفهم لم يكن مطرداً في كل الأحوال وخاصة إذا تعلق الأمر بالغناء والرقص اللذين يحملان سمات موغلة في المحلية والخصوصية ويحتاجان إلى ذائقة تضع في اعتبارها هذا الملمح . وقد شاءت ظروف اصطحاب الكاتب للبحارة على ظهر «فتح الخير» أن يشهد طقوساً من الغناء البحري التقليدي وما يصاحبه من رقص متعلق جميعه بأعمال الملاحة وإجراءات الإقلاع والرسو[44] .

وهو بالرغم من إعجابه الشديد بالجموح والعنفوان والمجهود الخارق الذي يبذله البحارة خلال إنزال الشراع ورفعه والتعامل مع الحبال والروافع ، وكلها أعمال يصاحبها الغناء والرقص ، فإنه لم يكن بمقدوره أن يتذوق إيقاع الغناء أو يفهم معاني الرقص (وخاصة ذلك الرقص المسمى الزفان المصاحب لفن الصوت المعروف في بلدان الخليج العربي) :

«جلسنا بينما راح البحارة يؤدون رقصاتهم . وكان الموسيقي رجلاً عربيّاً ضخماً ذا عينين ثاقبتين وشارب أسود . . . وربما كان عزفه جيداً بحسب المفاهيم الموسيقية العربية التي لم تكن لسوء الحظ هي نفس مفاهيمي . وقد زاد الطين بلةً غناؤه المتصل بصوته الأجش المزعج . ومهما كان نوع الغناء الذي كان يؤديه فقد كان بإمكاني الاستغناء عنه كلية . وقد همس علي في أذني قائلاً بأن ذلك الشخص كان أحد مشاهير الغناء في الكويت . ولكن ذلك الإعلان عن شهرته لم يغير من الأمر شيئاً بالنسبة لي ، ولم يجعل غناءه أفضل وقعاً في مسامعي» .

«وكان البحارة من آن لآخر يقفون ويرقصون أزواجاً ، ويقطع كل اثنين منهم السجادة جيئة وذهاباً وهما مصطفان جنباً إلى جنب . لم يعجبني ذلك الرقص وضاع على معناه - هذا إن كان له معنى على الإطلاق - إلا أن الباقين كانوا مستمتعين به كل الاستمتاع . وعلى الرغم من أن متعتهم كانت أكبر من أية متعة أخرى شاهدتها في أية حفلة رقص أوروبية رسمية ، إلا أني أعترف بأني لم أستطع أن أفهم من ذلك الرقص شيئاً»[45] .

د - عنفوان وجموح

ويبدو أن عدم تذوق الكاتب لأنماط من الغناء والرقص مما كان يشهد على ظهر المركب لم يكن عائقاً أمام تقديره الجم لنمط العمل والكدح المتواصل الذي يبديه البحارة مما لم يشهد له مثيلاً في سرعته وحرارته وجنونه على حد تعبيره . وقد كرس الكاتب صفحات كثيرة للحديث عن إيقاع العمل الهادر بأسلوب يشي بالانبهار والدهشة :

«هكذا كانوا يغنون جميعاً . لقد كان الجهد المبذول في الغناء كافيّاً وحده لإرهاق أي رجل عادي قوي البنية في ذلك المناخ القاسي ، فقد كانت العضلات متوترة ، والعرق يسيل على سطح المركب دون أن يهتم به أحد . . . لقد كانوا يغنون بتلك القوة الهائلة المنبعثة من رجولتهم الجامحة ، وكانوا يغنون بعنف وقوة تنبعث من حناجرهم كافية بحد ذاتها لرفع تلك العارضة» .

«كانوا يدقون الأرض بأقدامهم ويصفقون بأيديهم المقروحة تصفيقاً يتمشى مع الأغنية ، فتصدر عن تصفيقهم أصوات كأنها قرع الطبول . . .

هكذا كان عبداللطيف يغني وقسمات وجهه تتلوى ، بينما كان ظهره العريض مشدوداً للعمل . وقفز بحارة آخرون يتسلقون الحبال كالقردة ويد أحدهم فوق يد الآخر ، بينما الحبل يمر من بين أصابع أقدامهم . وتابعوا تسلقهم وأجبروا الحبال على النزول ، ثم تساقطوا وأجسادهم تقطر عرقاً وهم يصيحون»[46] .

هـ - روحانية وقناعة

وبالرغم من هذا العنفوان وتلك النفرة الجامحة نحو العمل ، لم يكن هذا الملمح في حياة البحارة ليبهر تلك الشخصية الغربية ، لو لم يتوازن ذلك مع ملمح آخر يستكمل خلاله ذلك البحار الكادح شروط إنسانيته وتوازنه مع حياة يغلب عليها الشظف . وهنا يبرز عنصر الروحانية والقناعة والرضا بروزاً يستحق التفات الكاتب ، وربما يستحق منه أيضاً مراجعته لكثير من مواقفه الحياتية .

«كانوا يبدأون يومهم بالوضوء والصلاة . وفي صلاتهم كانوا دائماً يولون وجوههم شطر مكة ، ويفرشون الوزرة أو الكوفية على الأرض أمامهم ، فلم يكن فقرهم يساعدهم على امتلاك حصيرة أو سجادة خاصة للصلاة ، ويقفون دقيقة صامتين خاشعين متناسين كل هموم الدنيا ومشاكلها . ثم يبدأون القيام بسائر حركات الصلاة وشعارها بشكل بسيط ومتناسق . وكان أمراً ممتعاً لي أن أراقب التغيرات التي تطرأ على وجوههم ، فقد كانت الملامح القاسية تخشع وتلين ، ويخبو البريق الذي يشع في العادة في العيون المتغطرسة ، ويتلاشى كل ما يمكن أن يكون هناك من الصلف والعجرفة والغرور . فلم يكن هناك أي رياء أو نفاق في تلك الوجوه القوية المتجهة إلى مكة ، وكان من الواضح أن دينهم كان بالنسبة لهم أمراً جوهرياً وحقيقة حية ، فلم تكن صلاتهم مجرد أدعية تتلى وتراتيل تردد ، بل كانت وسيلة للاتصال الحقيقي بإله يؤمنون بوجوده إيماناً قويّاً . فلم يكن أحد منهم يصلي على عجل ، بل كانوا دائماً يقضون بضع لحظات في بداية الصلاة في خشوع وتأمل وصمت يخلصون خلالها من التفكير بأمور

الدنيا ، وكنت أرقبهم وأنا أغبطهم على ذلك ، لأني لم أكن أستطيع أن أتخلص من التفكير في الأمور الدنيوية بتلك السهولة» .

«وقد كان القرآن هو الكتاب الوحيد الموجود على ظهر المركب ، والذي كثيراً ما كان حمد وعبدالله أخو النوخذة والمسافرون يقرأون به . . . وقد كان من الواضح أنهم قانعون راضون بهذا الكتاب ولا يملون من قراءته أبداً ، وفي بعض الأحيان كان بعضهم يرتل القرآن الذي يحفظونه عن ظهر قلب» .

«وقد أدهشتني بساطة النظام المتبع على المركب ، وهو نظام لا يحتاج إلى مجهود كبير ، كما أعجبني جداً ذلك التناغم والوفاق و السعادة الدائمة التي كانوا يعملون في ظلها . وربما كان ذلك راجعاً إلى أنهم كانوا فقراء لا يملكون سوى القليل من الملبس وبعض البضائع التي كانوا سيتاجرون بها ولا شيء غير ذلك ، أي أنهم في واقع الأمر لم يكونوا يملكون شيئاً . وقد بدأت بعد فترة من الزمن أتساءل عما إذا لم تكن فكرة جيدة ألا يملك المرء شيئاً من حطام الدنيا على الإطلاق»[47] .

ولعل فضيلة الرضا بواقع الحال وطنت قلوب أولئك البحارة على قوة الاحتمال ، وهيأت أجسادهم للتعايش مع الأمراض والجَلَد على معاناة صنوف من العلل الجسدية التي كانت تنتج من ممارسة مهن شاقة وخطرة كالسفر للتجارة والغوص على اللؤلؤ . إن اهتمام الكاتب برسم معاناة البحارة وعذاباتهم الجسدية وتكريس حياتهم كاملة للقليل القليل من مكاسب الدنيا وهباتها لم يأت على سبيل الوصف المجاني بقدر ما أتى مفعماً بالحنو ونفاذ الرؤية والعناية بالبعد الإنساني لتجربة من هذا النوع مفعمة بحس الصراع والتحدي . ولعل الصراع في مساحة مكانية وزمانية كسطح «فتح الخير» ورحلته لم يكن أسطورياً مهولاً بمفهوم القص الخرافي ، ولكنه بلا شك كان صراعاً مؤثراً وبليغاً بمفهومه الإنساني البسيط . إن وقوف البحار بجسده المعروق المرتجف أمام العاصفة ، أو إزاء كفاف المأكل وخشونة العيش ، أو في مواجهة بحر خؤون لا يعطي إلا أقل القليل ، ثم إصراره على هذا الوقوف والصمود والمواصلة على الرغم من المردود

الضئيل الأشبه بقبض الريح ، هو بلا شك الأمر الأكثر جذباً وتأثيراً في نفس الكاتب . وإذ يعاين الكاتب ألن فيليرز تجربة التحدي هذه ، فإنه يرى في شخوصها أبطالاً يستحقون الإشادة ، سواء من تميز منهم بالحزم وقوة الشكيمة والثقة بالنفس مثل نجدي نوخذة المركب وربانها ، أو من اتصف بالانكفاء على الذات والعمل الصامت الدؤوب مثل حمد بن سالم مساعده ، أو من تحلى بالطاعة والصبر الجميل واحتمال رثاثة العيش وبؤسه مثل يوسف البحار المبتلى بالفقر والديون ، أو غيرهم وغيرهم من البحارة البسطاء المفعمين بالجسارة والقناعة ورقة الحال .

وبالرغم من أن كل شخصية من شخصيات «فتح الخير» احتفظت بسماتها الفارقة وكان لها موقعها الخاص وحضورها في نفس الكاتب ، فإن ذلك لم يمنعه من رؤية تلك الشخصيات جميعاً في إطار من البطولة الجماعية . فجاء وصفه للحياة على متن «فتح الخير» بوصفها لوحة كلية متناغمة ومتناسقة ، تنتظم فيها جزئيات الأحداث والأفعال والمشاهد جنباً إلى جنب مع الأبطال الذين يحركونها ويصبون فيها نسغ الحياة .

أبناء السندباد : دلالات التسمية وإيحاءاتها

لعله من البدهي بالنسبة للدارس وهو بصدد الاستشراف النهائي لمادة الكتاب وفحواها أن يلتفت إلى العنوان ، محاولاً رصد دلالاته وإيحاءاته ومدى توافقها وانسجامها مع مضمونه . ومسمى «السندباد» في متن الكتاب يبرز أول ما يبرز في بعض الفقرات المبكرة ، حين تصوير الكاتب لبعض شخصيات المهربين الذين انضموا لركاب «فتح الخير» بوصفهم مسافرين بالأجرة ، وخاصة حديثه المسهب والدقيق عن سعيد الصوري وماجد العماني . وقد بدا في رسمه لهما ولغيرهم من التجار شديد التهكم ، مسرفاً في نقده وهجائه حين عقد الشبه بينهم وبين السندباد كما يتصوره .

يقول :

«ربما كنت مخطئاً في اتخاذ مثل هذا الموقف ، ولكني أصبحت أحب العرب ، وخاصة تلك المجموعة من الشياطين الذين كانوا على ظهر المؤخرة ، والذين كان كل منهم سندباداً قديماً في نظري . . . إذ كثيراً ما كنت أتخيل ذلك الشيطان العربي القديم واحداً من هؤلاء التجار المغامرين الذين يصاحبوننا ، فلا بد أنه كان من نفس هذا النوع من الرجال . فقد كانت نواة السندباد موجودة في كل من هؤلاء المغامرين الآتين من خليج عمان أو الخليج العربي ، وكل منهم يحمل صندوق بضاعته ولديه الاستعداد للقيام بأية مغامرة تأتي بالربح . بل يبدو أن السندباد القديم نفسه كان تاجراً أكثر منه ملاحاً ، ولكن المهنتين متلازمتان في الجزيرة العربية» .

ويقول عن سعيد الصوري :

«وكان كل ما استطعت معرفته عنه في ذلك الوقت أنه تاجر . . . وأنه كان من نوع المغامر المستعد لكل طارئ ، وكأنه سندباد عصري يحمل صرته على كتفه» . أما ماجد العماني «فقد اضطر أن يصبح سندباداً متجولاً من مكان إلى آخر على طول الشاطئ يحاول تحصيل قوته بذكائه ودهائه لا بعرق جبينه»[48] .

ويبدو من هذا التصوير الهزلي أن للسندباد - الشخصية الخرافية التي استقاها الكاتب من قصص ألف ليلة وليلة - صورة ذهنية معينة ليست بذلك القدر من طيب السمعة . فهو في رأيه ذلك المغامر الجوال الذي يعتاش على الحيلة والمراوغة ، وينطوي على الدهاء والمكر ، وينال مآربه باصطناع الحيلة والالتفاف . وهو أيضاً ذلك التاجر الغامض المتملص من التزاماته المنتهز لفرص الكسب كيفما تأتي .

ويبدو أن هذا التصور النمطي الهزلي لشخصيات أولئك التجار الذين التقاهم ألن فيليرز ، وسمّاهم بالسندباديين يقترب كثيراً من تصور الأوروبي لشخصيات رواية «البيكاريسك» picaresque novel . والبيكاريسك جنس أدبي روائي نشأ في إسبانيا منتصف القرن السادس عشر الميلادي متمثلاً بأبرز نماذجه «لازارللو دي ثورمز» 1554م ، ثم لاقى انتشاراً في بلدان أوروبا الأخرى كإنجلترا

وألمانيا وفرنسا . ولعل العنصر الأهم في هذا الجنس من الروايات هو شخصية البطل المتشرد البيكارو picaro ، الذي ينتمي إلى طبقة وضيعة ويحترف المغامرة وسرعة الانتقال ، ويعتاش بالحيلة والمراوغة والمكر . وعادة ما يبدو البيكارو ساخراً بالأعراف والليباقات الاجتماعية ، مستهزئاً بالمتعجرفين ، قاصداً غاياته في الكسب بالحيلة والالتفاف وليس بالكسب الشريف . ومن سمات البيكارو أيضاً احترافه للتجوال والتنقل بين فئات وطبقات المجتمع ، وقدرته على التملص من العقاب والمساءلة بالكذب والغش والمراوغة ، فضلاً عن تمثيله لشخصية الدخيل أو الطارئ على الوسط الاجتماعي ، وهو الأمر الذي يسوّغ له الخروج على الأعراف والليباقات وينجيه من الالتزامات الخلقية ما دامت لا تخدم مصالحه . وقد ظهر هذا النمط من القص وهذا النمط من الأبطال في الأدب الأوروبي ليعبر عن روح نقدية ساخرة موجهة للطبقية المتعجرفة ومظاهر الفساد في المجتمع ، فضلاً عن تصويرها الفني الثري لحياة الطبقات المسحوقة والوضيعة بطريقة واقعية مؤثرة[49] .

ولعل المتابع لجذور شخصية البطل المتشرد في الأدب العربي سيجد لها أصلاً واضحاً في بطل المقامات ، الذي يمكن أن يعد الجذر الحقيقي للبيكارو الأوروبي ، والسابق له في الزمان (أواخر القرن الرابع الهجري ، العاشر الميلادي تاريخ كتابة مقامات بديع الزمان الهمذاني) . ويبدو أن «فن المقامة ما كاد يعرف في الأندلس عام 1008م أي العام نفسه الذي توفي فيه الهمذاني ، حتى لقي رواجاً شديداً وذيوعاً كبيراً بين أدباء الأندلس . . . وتجدر الإشارة إلى أن هذا الفن العربي الأصيل فن المقامات قد ترك أثراً واضحاً في الأدب الإسباني ، وبخاصة في قصص الشطار الإسبانية المعروفة بالبيكارسك ، إلى حد القول بأن لفظ البيكارو أي البطل الشاطر مأخوذ من كلمة فقير العربية»[50] .

ويرى محمد رجب النجار احتمال تأثر الأدب الإسباني بأدب الشطار في التراث العربي ، ويذهب إلى أن «نمط الشاطر العربي بملاعيبه ومناصفه هو الأبعد أثراً في النمط الإسباني من نمط المكدي العربي بطل المقامات . صحيح أن

ثمة أوجه شبه في التراث العربي نفسه بين الواقعين الاجتماعي والأدبي للمكدين والشطار ، غير أن أدب الشطار الإسباني يظل أقرب إلى أدب الشطار القصصي كما عرفناه في ألف ليلة ، وسيرة الزيبق وغيرهما من حكايات الشطار الشائعة في التراث الشعبي العربي منه إلى أدب المقامات . . . وبذلك يمكن القول بأن فن الرواية البيكارسكية فرع مستلهم من أدب المكدين وأدب الشطار الشعبيين في التراث العربي ، وليس من أدبنا الرسمي الذي انتهى إلى قوالب صماء جامدة (المقامات المتأخرة)»[51] .

وعلى الرغم من أنه يمكن القول بأن صورة السندباد بطل ألف ليلة وليلة قد تقترب أو تبتعد من هذا التصور الهزلي التهكمي الذي يرسمه لها كاتب غربي مثل ألن فيليرز ، فإننا لسنا معنيين هنا بالدفاع عن السندباد الشخصية الخرافية ، بقدر ما نحن معنيون بإثارة علامة تعجب أمام اختيار المؤلف لعنوان «أبناء السندباد» لكتابه !

إن الكتاب بمجمل فحواه يحكي قصة مؤثرة وبليغة عن كفاح مجموعة من الرجال المنذورين للكدح ومصارعة تحديات حياة منطوية على الشظف والمشقة ، ومن خلفهم تبدو ظلال أرض لا تقل عنهم صبراً واحتمالاً لرقة العيش وقناعته . بل لقد أبدع الكاتب حقاً في استشفاف روح ذلك المجتمع الموغل في بساطته وبراءته ، ولمس برهافته وصدق إيقاع حياته وزمنه ، وقدم لنا صورة نادرة ودقيقة لكويت الثلاثينيات من القرن المنصرم . وقد كان للإنسان في سياق ذلك السرد النصيب الأوفى من التقييم والتقدير لجلده وكفاحه وحبه لأرضه بالرغم من كل شيء . ولا ندري ما علاقة هذه التركيبة من البيئة والبشر كما وعاها المؤلف في الفصول الأولى من الكتاب وتندر بشخوصهم وسلوكياتهم لم يكونوا غير ركاب مستأجرين غادروا بوم «فتح الخير» في ميناء مقاديشو بعد سلسلة من المشكلات التي جعلت وجودهم أمراً غير مرغوب فيه . ومن هنا تبدو تسمية «أبناء السندباد» حسب تصور المؤلف للشخصية السندبادية واختيار هذه التسمية عنواناً للكتاب أمراً مثيراً للدهشة وبَلْه الاستنكار .

والدهشة تنطلق أولاً من عدم تطابق فحوى الكتاب وهو قصة الكفاح مع العنوان «أبناء السندباد» ، إذا كان مفهوم السندباديين عند الكاتب مفهوماً ينطوي على الهجائية والتهكم كما نوهنا سابقاً . وتأتي الدهشة كذلك من التناقض الذي وقع فيه الكاتب حين فسر عنوان كتابه بسطر لاحق أثبته على الغلاف أتى بهذه الصيغة :

Sons Of sinbad

The Great Tradition Of Arab Seamanship In The Indian Ocean

أبناء السندباد

قصة الملاحة العربية العظيمة في المحيط الهندي

والعنوان بهذه الصورة ، وبخاصة في استخدامه لتعبير «الملاحة العربية العظيمة» يشي بالتقدير للدور الذي قام به العرب في هذا المجال . فكيف يستقيم ذلك التقدير أيضاً مع التسمية الهجائية المتهكمة لأبناء السندباد كما يفهمها الكاتب؟ !

يبدو للمتأمل في سياق فصول الكتاب أن المؤلف ، بالرغم من إقراره بصلابة الإنسان العربي وعناده وقدرته على التحدي والجَلَد ، لم يتمكن من التخلص من بعض الانطباعات غير النزيهة التي تسم العقلية الغربية ، وبخاصة ما يتعلق بتصوراتها النمطية عن الشخصية العربية . والسندباد بصورته الهزلية المنطوية على الحيلة والخبث والمراوغة قد لا يكون بالنسبة للغربي مجرد شخصية خرافية ، بقدر ما هو إطار لشخصية نمطية جاهزة يمكن إلباسها لأي تاجر عربي يجوب البحار ، بل يمكن توسيع دائرتها لتشمل كل التجار العرب دون تفريق أو تمييز مما يقود إلى الشطط والمبالغة .

ونحن إذا أردنا أن نحسن الظن بالمؤلف ، ولعله يستحق ذلك لما بذله من جهد واضح في التأليف ، فما علينا إلا أن نضع في الاعتبار مفهومنا الخاص عن السندباد ، ونضيفه بوصفه بعداً إيجابيّاً لشخصية جدلية تناقضت حولها الآراء . ويبدو أن السندباد ظل بالرغم من مرور العصور رمزاً جذاباً للمبدعين لما يشعه

من معاني المغامرة والجرأة ولذة التجريب وأشواق الروح للكشف ، والتمرد على الارتهان لقيد المكان أو ضيق الأفق[52] . والسندباد ، إذ يعود بعد كل رحلة منهكاً إلى وطنه ومسكوناً بما واجه من مخاطر وأهوال ، يصر بعد كل عودة على أن يبدأ الرحلة من جديد معانقاً حريته وانطلاقاته وأمله في التجدد والانعتاق . ثم هناك وجه آخر مميز للسندباد وهو ارتباطه بالبحر والإبحار ، وجسارته في مواجهة المجهول ، وتكريس حياته كاملة لتلك الرحلة الدائرية غير المنتهية . والتشابه في كل هذه العناصر بين السندباد الشخصية الخرافية والبحار العربي الذي رصده ألن فيليرز وعرفه عن قرب لا شك يعلي من رصيد ذلك البحار الكادح الجسور ويعطيه سمة خاصة به تسلخه عن أية تصورات مغرضة أو غير نزيهة .

الأنا والآخر

بالرغم من ذلك الزخم الحياتي الموار الذي انشغل الكاتب برصده عن البحارة العرب وحياتهم ومجتمعهم ، كان لحضوره هو بوصفه شخصية فاعلة ومنفعلة في مكان الحدث وزمانه نصيب وافر أيضاً . فهو في معرض الحديث عن الآخر لم يهمل ذكر معاناته الشخصية ومسراته الصغيرة وجَلده ومكابداته وصبره على أمراض مفزعة كالعرج لمدة ثلاثة أشهر ، والعمى لمدة شهر ، فضلاً عن رضاه بالكفاف في المأكل والملبس والراحة . لقد كانت هذه الحياة الشاقة بالنسبة له شرطاً أساسيّاً لمعرفة الآخر والعيش في أجوائه وطقوسه نفسها ، والاندغام في وهج تجربته الحياتية العارية . وكلما ارتفعت درجة صدق التجربة استطاعت أن تعيد صياغة صاحبها وتهبه رؤية أكثر عمقاً وحسّاً ، وأكثر تقديراً لحيوات غيره من البشر وإن اختلفوا عنه في الجنس أو اللون أو الثقافة . يقول ألن فيليرز في مقام اكتمال تجربته ووداعه الأخير للكويت ومشاهدها وإنسانها أواخر عام 1939م :

«وهكذا غادرت الكويت عن طريق البر إلى البصرة فأوروبا ، وكنت حزيناً وأنا أترك المدينة وراء ظهري . لقد كان للبلاد حظها من المشكلات ، إلا أنها

كانت أقل من غيرها من البلدان المشابهة لها في المساحة ، كما كان عليها أن تتغلب على كثير من المصاعب أيضاً . وقد تمكنت حتى الآن من حل مشاكلها والتغلب على صعوباتها ، وليس هناك من سبب يجعلها عاجزة عن مواصلة ذلك في المستقبل . فمراكبها وبحارتها معروفون بسمعتهم الطيبة في طول البحار الشرقية وعرضها ، وبريق لؤلؤها مشهور في باريس ونيويورك ، وتجارها يلاقون كل احترام من سوريا إلى سنغافورة ، ومن القاهرة إلى كاليكوت بالهند . وهي مكان لطيف جميل يعيش فيه المواطنون بسلام ووئام ، ويساعد فيه التجار الأغنياء الفقراء من المواطنين بحسب تعاليم الإسلام ، ويتصرف الشيخ كوالد للجميع .

وبينما كنت أغادر المدينة في وضح النهار ، وأرى قوافل الجمال وهي تدخل إليها محملة بالعوسج وحطب الوقود قادمة من الصحراء ، وفريقاً من الصبية وهم يسوقون حميرهم بمرح إلى حيث الآبار التي يملأون منها قربهم بالماء الصالح للزراعة ، كنت أشعر بالحنين إلى البقاء هناك حيث يمكنني أن أشتري (البغلة) التي تعجبني ، وأجالس الرجال الحكماء الأجلاء موسماً آخر ، وأتعلم المزيد من فنون الملاحة في البحار الشرقية . كانت الشمس تسطع باهرة في سماء صافية خالية من الغيوم ، إلا أن الجو لم يكن شديد الحرارة ، بل كان معتدلاً لطيفاً ، والهدوء والسكينة يلفان كل شيء وعندما كنت أنظر إلى علم الكويت الأحمر وهو يخفق على قصر الشيخ وعلى جميع المراكب الراسية في الميناء كنت أقول في نفسي ها هو علم أود لو استطعت الإبحار وأنا أرفعه على مركبي ، كما أود لو استطعت أن أعيش في ظله مرة أخرى . وداعاً يا كويتي العزيزة ! حق لك أن تفخري برجالك الذين يبنون المراكب العظيمة ، وببحارتك الذين يبحرون على ظهورها إلى أقاصي الأرض»[53] .

خلاصة البحث

انطلق البحث من النظر إلى كتاب «أبناء السندباد» لألن فيليرز على أنه كتاب في أدب الرحلة ، وانطلق أيضاً من النظر إلى هذا الكتاب على أنه توثيق

لرحلته الفعلية التي امتد خطها الملاحي بشكل دائري من موانئ الخليج العربي ، مروراً بموانئ إفريقيا الشرقية ، وانتهاء بزنجبار ودلتا نهر الروفيجي في أدغال تنجانيقا ، ثم عودته عبر الخط نفسه ، وانتهاؤه إلى الكويت .

والرحلة ما كانت مجرد كشف لهذه السواحل العربية والشرقية ، بقدر ما كانت استكشافاً لحياة شعب ، وتعرفاً عن قرب لنمط معيشتهم ومهنهم ونشاطهم وقيمهم الثقافية . لذلك نجد ألن فيليرز يختار عن عمد أن يبحر على متن مركب (بوم) كويتي هو «فتح الخير» ، ومع نوخذة كويتي هو علي بن ناصر النجدي ، وينتهي في آخر مطافه إلى الكويت ، فيقيم فيها بضعة أشهر ليسجل المزيد عن سمات ذلك المجتمع وظروف حياته أواخر عام 1939م .

وبالرغم من اقتراب منهج الكاتب من التسجيل الوثائقي المحايد الذي يتحرى الحقائق بالمشاهدة والمعاينة المباشرة ، فإن المؤلف ما استطاع أن يتجرد من رؤيته الذاتية النابعة من ثقافته الأوروبية وتكوينه وانتمائه العرقي . ومن هنا نشأ الاختلاف في الرؤية التقويمية لمنظومة القيم الثقافية . فهناك رؤية العربي لذاته ، وهي رؤية محكومة بالتلقائية والعفوية ؛ إذ إن هذا العربي يعيش في محيطه وبيئته . وهناك رؤية الغربي له ، وهذه الرؤية تحكمها الدهشة والفضول ومحاولات التعلم والاستطلاع . وقد اجتهد البحث في الوقوف على ما تصنعه هاتان الرؤيتان المختلفتان من مفارقات جديرة بالملاحظة والتسجيل . وقد جاء رصد تلك المفارقات والاختلافات في محاور هي :

- الملاحة العربية في مواجهة النفوذ الأوروبي ، وما صنعه هذا النفوذ - كما رسم الكاتب - من قوانين وإجراءات (معرقلة) لأنشطة التجار العرب وتحركاتهم ، وهو الأمر الذي أوجد حالة من الريبة والنفور وصعوبة التلاؤم ، وسجل أول علامة من علامات الاختلاف .
- انشغال الكاتب بالقياس والتقويم لشخصيات بوم «فتح الخير» ، وتقصي طقوس العمل وأعراف المهنة وقيم المجتمع الثقافية . وهو خلال هذا الاستقصاء كان يصدر عن منزعين :

الأول : التقدير الجم لشخوص أولئك البحارة العرب ، وسماتهم الإنسانية وفضائلهم النفسية ، والثناء على مهارتهم في العمل وجَلَدهم عليه .

الثاني : نعيه الخفي على بعض ما لا يقره أو ما لا يستطيع فهمه من طبائع أولئك البحارة وسماتهم ، كالميل إلى التواكل ، والإيمان بالقَدَرية المطلقة ، وموقفهم المتساهل من الزمن ، والتخلف المعرفي ، ورثاثة الحال . . . إلخ . وكلها تصب في خانة الاختلافات التي استدعت من الكاتب الدهشة والفضول .

وتمتد الرؤية الذاتية لتمس عنوان الكتاب أيضاً . فتسمية «أبناء السندباد» تبدو قلقة ومريبة وضاجة بالتناقض . فللكاتب تصوره الأوروبي الخاص لمفهوم «السندباد» ، القريب الشبه في رأيه من شخصية البيكارو أو البطل المتشرد في الجنس الروائي الأوروبي المعروف بالبيكاريسك ، وهو شخصية تنطوي على الهجائية والتهكم . وهذا الأمر أو التصور لا يستقيم وتقدير الكاتب الجم للبحار العربي كما ظهر في كتابه ، مما يوقعه في التناقض .

ولكن يبقى في النهاية أن ميزة الكتاب الأساسية لا تتبدى في قيمته التوثيقية فقط ، بقدر ما تتبدى أيضاً في قيمته الفنية الأدبية ، من خلال الرصد المتأني للأحوال والمواقف على ظهر «فتح الخير» أوفي الموانئ أو حين الاستقرار في الكويت .

فقد كان الكاتب يحوك بحاسة الأديب تحرك تلك الشخصيات والأحداث طوال الرحلة البحرية وبعدها ، داخل بناء سردي يتنامى على شكل قصة واقعية امتلكت كامل عناصرها الفنية ، كعنصر الصراع ، والحبكة الدرامية ، والشخصيات المؤثرة النامية ، ونكهة المكان ، وخاصية الزمن . فضلاً عن لمّ شتات هذا العالم في شبكة متآلفة ذات نسق ينحو نحو التكامل والوحدة ، مما يعلي من فنية العمل وتأثيره .

* * *

الهوامش والمراجع

(1) فيليرز ، ألن : **أبناء السندباد** . ترجمة : نايف خرما ، مطبعة حكومة الكويت ، 1982 .

(2) فهمي ، حسين محمد : **أدب الرحلات** ، سلسلة عالم المعرفة ، يونيو 1989 ، ص17 .

(3) انظر : زكي ، محمد حسن ، **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى** ، دار المعارف ، 1945 . مال الله ، علي محسن : **أدب الرحلات عند العرب في المشرق نشأته وتطوره حتى نهاية القرن الثامن الهجري** . بغداد ، مطبعة الإرشاد ، 1978 .

(4) Christopher Gillie: **Longman Companion to English Literature**. London, 1972, p. 830.

Edward Quinn: **Literary and Thematic Terms.** New York, 1999, pp. 331, 332.

(5) Quinn (1999) pp 331 - 332.

(6) Quinn (1999) .

(7) أدب الرحلات ، ص49 .

(8) أدب الرحلات ، ص49 .

(9) أدب الرحلات ، ص71 .

(10) ألن فيليرز أو الشيخ ماجد كما كان البحارة العرب يدعونه . كان آخر الربابنة العظام للمراكب الشراعية الكبيرة التي تجوب البحار . وقد أمضى الجزء الأكبر من عمره يقود تلك المراكب ويدرسها ويكتب عنها . وقد بدأ أولى رحلاته من وطنه استراليا ولما يبلغ الخامسة عشرة من عمره . وفي عام 1935م قاد المركب الشراعي «جوزيف كونراد» في رحلته الشهيرة حول «رأس هورن» ، كما قام في عام 1957م بقيادة المركب «ماي فلور» الذي صنع ليكون نسخة مماثلة للمركب الآخر الذي يحمل هذا الاسم ، والذي استخدمه «كولومبوس» لاكتشاف العالم الجديد . قام «ألن فيليرز» بتأليف عدد يزيد على العشرة من الكتب ، كان آخرها كتابه المسمى «**القبطان جوزيف كونراد**» .

(11) انظر الخريطة المرفقة .

(12) بوم : هو اسم لنوع من المراكب العربية الخليجية الشهيرة ، ويستعمل للمياه العميقة ، وبخاصة بين عرب الخليج العربي . والبوم مركب متشابه الطرفين ، عمود مقدمته مبني على شكل نوع من الدقل المائل المصنوع بالألواح ، كما يتميز بسكانه الذي يشبه النير .

(13) **النوخذة** : هو المصطلح الذي يستخدمه عرب الخليج لربان السفينة وقائدها .

(14) أدب الرحلات ، ص37 ، 38 .

(15) فارس ، أسعد : **رحالة الغرب في ديار العرب** . ط1 ، الكويت : صقر الخليج للنشر والتوزيع ، 1997 ، ص27 .

(16) سعيد ، إدوارد : **الاستشراق : المعرفة – السلطة – الإنشاء** . ترجمة : كمال أبو ديب ، بيروت : مؤسسة الأبحاث العربية ، ط3 ، 1999 ، ص60 .

(17) الاستشراق ، ص48 .

(18) الاستشراق ، ص42 ، 43 .

(19) بيرين ، جاكلين : **اكتشاف جزيرة العرب** . ترجمة : قدري قلعجي ، تقديم : الشيخ حمد الجاسر ، الرياض - بيروت ، ص16 .

(20) أبناء السندباد ، ص23 . يستدرك الكاتب هذه المقولة لاحقاً في صفحة 38 حين يأتي على ذكر كتاب النوخذة عيسى القطامي وهو بعنوان «**دليل المحتار في علم البحار**» . ويعلق على ذلك بقوله : «وكتابه هذا وكتابي (بعد ترجمته) هما الأثران الوحيدان في اللغة العربية الباقيان حتى الآن» .

(21) انظر : شوقي ، عبدالقوي عثمان ، **تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية** . سلسلة عالم المعرفة ، يوليو 1990 . الموافي ، ناصر عبدالرزاق : **الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري** . دار النشر للجامعات المصرية ، ط1 ، 1995 . محمد ، خالد سالم : **ربابنة الخليج العربي ومصنفاتهم الملاحية** . ط1 ، الكويت ، 1982 .

(22) انظر : خوري ، إبراهيم : **العلوم البحرية عند العرب** . تحقيق لمصنفات شهاب الدين أحمد بن ماجد ، دمشق ، 1971 . شهاب ، حسن صالح : تحقيق : **كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد** لابن ماجد . الكويت ، 1989 . كراتشكوفسكي ، اغناطيون : **تاريخ الأدب الجغرافي العربي** . ترجمة : صلاح الدين عثمان هاشم ، ط2 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1987 .

(23) ربابنة الخليج العربي ، ص83 ، 85 .

(24) انظر : تجارة المحيط الهندي وتاريخ الأدب الجغرافي .

(25) أبناء السندباد ، ص61 ، 62 .

(26) أبناء السندباد ، ص23 .

(27) أبناء السندباد ، ص305 ، 306 .

(28) أبناء السندباد ، ص226 ، 227 .

(29) أبناء السندباد ، ص227 .

(30) أبناء السندباد ، ص194 .

(31) أبناء السندباد ، ص195 .

(32) أبناء السندباد ، ص195 .

(33) أبناء السندباد ، ص196 .

(34) **البغلة** : هي مركب المياه العميقة التقليدي في الخليج العربي وفي خليج عمان . وتمتاز هذه بمؤخرتها ذات النوافذ الخمس التي كثيراً ما تكون محفورة بأشكال مختلفة على نسق مركب «الكارافيل» البرتغالي القديم . وللبغلة شرفات على الجانبين قرب المؤخرة ، كما يعلو مؤخرتها المعكوفة رأس حيوان ذو قرنين .

(35) أبناء السندباد ، ص307 .

(36) أبناء السندباد ، ص329 ، 330 .

(37) أبناء السندباء ، ص196 .

(38) أبناء السندباد ، ص71 ، 72 ، 271 ، 272 .

(39) أبناء السندباد ، ص274 .

(40) أبناء السندباد ، ص526 ، 527 .

(41) أبناء السندباد ، ص80 ، 54 .

(42) أبناء السندباد ، ص138 ، 139 .

(43) أبناء السندباد ، ص201 ، 203 .

(44) انظر : الرفاعي ، حصة السيد زيد : **أغاني البحر** : دراسة فلكلورية . ط1 ، الكويت : ذات السلاسل ، 1985 .

(45) أبناء السندباد ، ص66 ، 67 .

(46) أبناء السندباد ، ص342 ، 343 ، 494 .

(47) أبناء السندباد ، ص94 ، 101 ، 102 .

(48) أبناء السندباد ، ص193 ، 194 ، 87 ، 241 .

(49) انظر : The New Encyclopedia Britannica, vol: 9, ed 15, p. 421.

(50) النجار ، محمد رجب : **النثر العربي القديم من الشفاهية إلى الكتابية** . الكويت : دار الكتاب الجامعي ، ط1 ، 1996 ، وص 281 ، 282 .

(51) النجار ، محمد رجب : **حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي** . ط2 ، 1989 ، ص418 ، 421 .

(52) انظر : عباس إحسان ، **اتجاهات الشعر العربي المعاصر** . سلسلة عالم المعرفة ، فبراير 1978 ، فصل : الموقف من التراث - التراث الأسطوري . أحمد ، محمد فتوح : **الرمز والرمزية في الشعر المعاصر** . دار المعارف ، ط3 ، 1984 ، فصل : الرمزية الأسطورية .

(53) أبناء السندباد ، ص594 .

* * *

ajh 2003

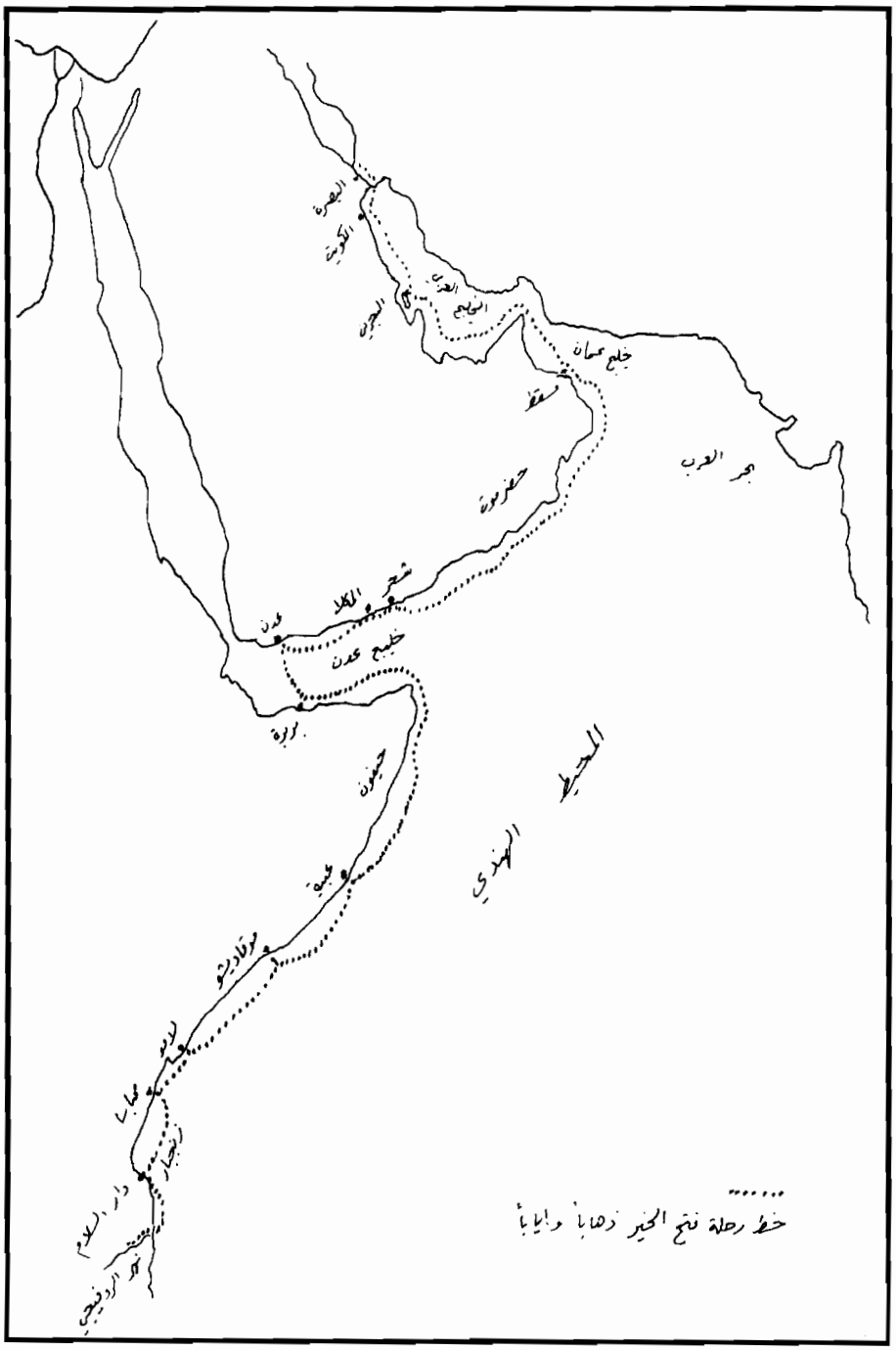
البصرة
الكويت
البحرين
قطر
الإمارات
الخليج
خليج عمان
مسقط
حضرموت
بحر العرب
شحر
المكلا
عدن
خليج عدن
زيلع
المحيط الهندي
جيبوتي
مقديشو
ممباسا
زنجبار
دار السلام
خط رحلة نقح الخير ذهابا وإيابا